الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٤ — ٢٢ ابريل سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 94.

Lundi-22-4-1935

بدل الاشتراك عن سنة

م

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الثالثة « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ١٣٥٤ — ٢٢ ابريل سنة ١٩٣٥ » العدد ٩٤

فهرس العدد

جمعية نهضة القرى

احتفلت هذه الجمعية البرّة منذ يومين بانقضاء عامين من جهادها النبيل فى انهاض القرية المصرية . وهذه الجمعية هى أيضاً من أعمال الشباب ؛ ولعلها أقرب أعمالهم الجليلة إلى الخير المحض ! فان ما ركبوه إلى اليوم من قُحَم السياسة ، وما عالجوه من خطط الاقتصاد ، إنما كان مبعثه الغرور القومى ، أو الشعور الوطنى ، أو هما معاً ؛ أما هذا العمل فمبعثه الخالص عاطفة البر فى الانسان بأخيه الانسان ؛ وهذه العاطفة إنما غرستها فى القلوب يد القدرة ، وأنمتها قوة الفطرة ، وفرضتها طبيعة الحياة ، ليحصل بها التئام شمل الناس ، وانتظام عقد المجتمع ، واتحاد وجهة الانسانية بالتعاون والتضامن إلى الكمال البشرى الممكن

راع الشبابَ — وهم موضع الحس المرهف من الأمة — ما جرّه تفشى الأمية على القرى المصرية من انقطاع السير ، وانخزال الحركة ، وانتشار العلل ، وانفجار الأحداث ، واغبرار العيش ، وهى مصدر القوة للشعب ، ومورد الثروة للوطن ، فحشدوا جنودهم فى هذا الميدان ، وسددوا جهودهم إلى هذا الغرض ، وراحوا يهاجمون الجهل والفقر والمرض فى تلك الحظائر أو المقابر التى ضَمِنت أجوافُها السود أربعة أخماس الأمة ، ثم دأبوا يقرعون الآذان

بالخطابة ، ويَحزُون الضمائر بالكتابة ، ويهيبون بالحكومة والقادة أن يأخذوا من تجميل المدينة لتأثيل القرية ، ومن ترف الباشا لحاجة الفلاح ، ومن فلسفة الخاصة لأمية العامة ، حتى ارتفعت حجب الأسماع ، وانكشفت أغطية القلوب ، فعطف على قضية القرو يين رجالات البلد من أولى الحكم وأهل العلم وذوى المثالة ، وألفوا من قدرة الشبيبة ، وخبرة الكهولة ، دستور العمل المنتج لانجاد الفلاح وإسعاد القرية

* * *

لعل أنطق الأدلة بخطورة العمل الذى تقوم به هذه الجمعية الجليلة أن أصف لك قرية أعرف بيوتها كما أعرف بيتى ، وآلف أهلها كما آلف أهلى ، وستجد حين توازن بين قريتى وقريتك أننى وصفت على الجملة قرى مصر جميعاً :

كومة من سباخ الأرض قام عليها أكواخ متلاصقة من اللَّبِن[1] ، سقفوها بالخشب والقصب ، وحمّلوها بالعلف والحطب ، وجمّلوها بشرفات من الروث اليابس ، ثم جعلوا ظهورها خلاء للحاجة ، وبطونها مسرحا عجاجا لشتى الأوالف والدواجن من الكلاب والقطاط والعجول والدجاج والبط ، ثم جمعوا بين قاعة الانسان وزريبة الحيوان فى فناء واحد ، فالحديث يمتزج بالخُوار ، والمضغ يشتبه بالاجترار ، والرجل والثور ، والمرأة والبقرة ، والطفل والعجل ، يعيشون سواسية فى شيوعية عجز عن تحقيق حُلمها (الروس) ! لا يؤديك إلى هذه الدويرات العُمْى مسلك واسع ولا طريق مشروع ، إنما هى طوائف طوائف ، تفتحت كل طائفة منها على زقاق ضيق غير نافذ ، ولن تستطيع الدخول فى هذا الزقاق إلا من الطريق الدائر حول القرية !... بلى قد يشق البلدة منفذ صاعد هابط متحدر متعرج وعر ، ولكنه بين الفجوات والحفر يكون أشبه بصراط الحق بين مزالق الفتنة

يركبها من الشمال مستنقع ومن الجنوب مستنقع ، ثم يحيط بها ويتخللها تلال من السرجين[2] والسماد منها الرطب ومنها اليابس ، وفى أحضان هذه التلال ، وعلى حوافى هذه المناقع ، قامت مجالس القوم ، يجلسون فيها تحت الجدران وفوق المصاطب يستجمُّون حيناً من العمل الدائب والعناء المرهق ، لا يألمون لسعَ البعوض ، ولا ينكرون رِيح الوحل ؛ ثم لا يجرى بينهم إلا الحديث القابض كتضاعُف الدَّين على الأرض ، وتحكم المالك فى الريع ، وفتك الآفات بالزرع ، وإلحاح الكساد على القطن ، وماتدخله تلك الحال على النفس الجاهلة من وساوس الاطماع وسخائم الحقد وغوائل الحسد !

اصطلحت على دمائهم الفقيرة جراثيم الملاريا والبلهارسيا والانكلستوما ، فغدوا كواسفَ الوجوه ، خواسفَ الجسوم ، خوائر القُوَى ، يعالجون المرض بالصبر ، ويخففون الألم بالتسليم ، ويدافعون الموت بالتعاويذ ، ويسيئون الظن بالمستشفيات التى لا تقبلهم إلا بالشفاعة ، ولا تعاملهم إلا بالفظاظة ، ولا تحسن علاجهم إلا بالمال فى العيادات الخاصة ... وأين المال من رجل كل ما يملكه أجرة يومه لقوت يومه ؟ وليت هذا القوت كان من الأقوات التى تصلح الجسم ، وتدفع السُّقم ، وترد العافية ! إنما هو فى الغالب رُغفان من الذرة أو الشعير مأدومةً ببعض أحرار البقول[1] واللبن المملح . . .

استغل المُلّاك ضعفهم ، والمرابون جهلهم ، فوضعوا أيديهم على أختامهم يطبعونها على العقود والصكوك فى غير رحمة ولا ذمة ، حتى إذا انقضى الحول وآل كدح الأسرة الناصبة ، وجهد الماشية اللاغبة ، وشقاء الفلاح المسكين ، إلى الثمرة المرجوة ، عدا عليها الدائن اللص ، أو المالك الظالم ، فجباها لجيبه ، أو جناها لمخزنه

ذلك على الاجمال وصف القرية ، فهل تجد فرقاً بينها وبين أخصاص الهمج فى نشأة الحياة وطفولة الزمن ؟ وتلك هى على التقريب حال الفلاح ، فهل تجد فرقاً بينه وبين البهيم الذى لا يصطنع العلم ، ولا يدعى المدنية ، ولا يزعم لنوعه الرقى ؟

فاذا استطاعت هذه الجمعية الشابة أن تجعل من هذه الأقذار المركومة مسكناً يجمل فى العين ويجدى على الصحة ، ومن هذا الكائن المهمل رجلا يشعر بالحياة ويسير مع الأمة ، فقدر فى نفسك أى واجب تؤدى وأى خير تفيد ! !

احمد حسن الزيات

(١) اللبن : الطوب الذى لم يحرق (٢) السرجين : الزبل

(١) أحرار البقول ما يؤكل منها غير مطبوخ كالهندبى والخس

٤ ـ كَلِمة وكُلَيمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لا يَفشو الكَذِبُ إلا في الأمم الذليلة ؛ فاذا فقدوا سُلطةَ الحكم واستشعروا في الحياة معنى فقدها ، سلَّطوا أنفسهم على ما يَسهُلُ الحكمُ عليه لكل ضعيف : على المعاني في ألفاظها . . ولكنَّ هذا أيضاً كَذِبٌ في الحكم . . .

* * *

إذا رأيتَ قوماً عمَّهم الكَذِبُ في باب ما يُفتَخَرُ به ، فاجمل هذا وحده في تاريخهم بابَ ما سَقَطوا به

* * *

تمامُ بعضِ اللَّذاتِ في الحِرْمانِ من بعض اللذات

* * *

ما أسعدَ العقلَ الذي يتأثر ببَلاهةٍ كالطفل ؛ ولكن هل يُسَمَّى هذا عقلا . . . ؟

* * *

الحبُّ في طبيعته حُمْقٌ عاقل ؛ ألا تراه حين يُبغِضُ كيف ينقلبُ إلى الصورة الأخرى فيكونُ عقلاً أحمق ؟

* * *

أشدُّ العداوة لا تكون إلا من أشد الحب

* * *

كَرِهْتُ رجلاً في الدين ، وكرهتُ امرأةً في الحب ؛ فكان النزاعُ بيني وبين من كرهتُ كالنزاع بين دِينين لا بين شخصين

* * *

من أسخف ما رأيتُه تَنبُّلُ الوظَّفين بثيابهم وظاهر هيأتهم ؛ تكون وظيفةُ أحدهم ستةَ جنيهات في الشهر ، وهو مدينٌ للخياط في اثني عشر . . يريد أن يقلد الرئيسَ الكبيرَ في تقرير مكانته بجاه الحكومة ؛ فيُقرِّرها ولكن بجاه الخياط . . .

* * *

لو تاهَ غنيٌّ في الصحراء ونَفِدَ زادُه ثم أصابَ رغيفاً مُلقى هناك — لعرف به لذةَ الفقر ، ولأدرك أن أغنى الغِنَى يعجزُ أن يُؤتِيَ النفسَ مثلَها . إن إمكان المُتعذِّر هو وجودٌ تامٌّ السعادة بنفسه ، وهذا ما حُرِمَهُ الأغنياءُ وهو للفقراء كلَّ يوم

* * *

قاعدةُ الحياة أن ما امتنع على الجسم من شهواته جعلته الروحُ من مَسرَّاتها ؛ ففي بعض الفقر نوعٌ من الثروة ، وفي نوع من الحرمان بعضُ العَطاء . ولكن أين الروحُ القويةُ التي تعرفُ هذا الضَّرْبَ من المعاملة وتصبر عليه ، وأكثرُ الناس في معاملة الله كالأبْلَه يُعطَى صَكًّا بألف دينار على « البنك » فيحسبُه ورقةً كالورق فيمزِّقُه أو يُلقيه ويذهبُ يتَوَجَّعُ من الفقر . . .

* * *

لا يَجمعُ الطفلُ على نفسه هَمَّينِ في وقتٍ معاً ، بل يَحصُرُ نفسَه في الهمّ الواحد ليخرجَ منه أقوى وأسرع ما استطاع . ولكن أين من يقدرُ على هذا إلا الطفلُ في همومه الصغيرة ؟

* * *

رُؤيةُ الكِبارِ شُجعاناً هي وحدها التي تُخرِجُ الصغارَ شجعاناً . ولا طريقةَ غيرُ هذه في تربية شجاعة الأمة

* * *

يقول أهلُ السِّياسةِ أحياناً في الاعتذار إلى الضعفاء المساكين : أيها العقلاءُ ! إن هذا لا يمكن أن يحدث

والمعنى السياسيُّ : أيُّها البُلْه ! إنه لا يمكن أن يَحدُثَ إلا هذا . . .

* * *

إذا دام ما أرى من حماقة الشرقيين الناقلين عن أوربا ؛ فستَنقُلُ أوربا يوماً عن الشرقيين متى احتاجت إلى مَخازيها في شكل هَمَجي . . .

* * *

أبلغُ ما في السياسة والحب معاً : أن تُقالَ الكلِمةُ وفي معناها الكلمةُ التي لا تقال . . .

* * *

الحربُ تصحيحٌ لخطأٍ وقَع في السِّلْم أو لِما يَزْعُمُه القويُّ خطأً وقع . فلن تَنْتَفِيَ هذه الحربُ من الدنيا إلا يومَ تُرَبِّي الذئابُ تربيةً خروفيَّه . . .

* * *

لا فرقَ بين زوجةٍ وجارةٍ في دار ، إن لم تجعل الزوجةُ

دارَها فى الزِّينة والمَرح كأنَّما هى متزوِّجةٌ أيضاً

* * *

طبيعةُ المرأة بفنِّها منزليةٌ حجابيَّة . والدليلُ على ذلك وضعُ امرأةٍ جميلةٍ تعملُ فى مَصْنع فيه رجال . فطبيعتُها بفنها لا تجعلها حينئذٍ إلا بين اثنتين : إما أن تُطْرَد من بينهم ، وإما أن تكون بينهم كالزوجة . . .

* * *

يمثِّلُ النساءُ الغالياتُ فى المطالبة بحقوق المرأة فصلاً من رواية العاطفة فى شكل فصل من الحق ؛ يُرِدْنَ المُطاردة والسلام . . .

* * *

كن الرجلَ فى معانيه القوية فلن تجدَ المرأةَ معك إلا فى أقوى معانيها

* * *

وَدِدْتُ والله لو أمكن أن يجتمعَ المطالباتُ بحقوق المرأة على زعيمةٍ واحدة يخترنها من نساء العالم كلِّه ؛ فلن تكون هذه الواحدةُ إلا المرأةَ التى يستحيلُ أن يتزوجَها رجلٌ فى العالم . . . . . .

* * *

قضت الطبيعةُ قضاءَها : أن سعادةَ المرأة فى أن تكون هى سعادةً لغيرها ؛ فنساء المعامل والحوانيت هنَّ . . . هن والله الشريدات المُتصعْلِكات

* * *

أنا مُستيقِنٌ أن العلم سينتهى إلى إثبات هذه القضية : إن المرأةَ مريضةٌ بأنها أنثى

* * *

الخطأُ والمرأة : كلاهما أكبرُ همِّه أن يظهرَ ويَغلِب . . .

طَلبَ الخليفةُ المنصورُ إماماً زاهداً عظيماً ليُولِّيَه القضاء . فلما دخل الامامُ قال للمنصور : كيف حالك ، وكيف عيالك ، وكيف حميرُك . . . فقال أخرجوه فانه مجنون

كذلك يُضطرُّ الرجلُ العظيمُ أن يخرجَ أحياناً على عقل سواه ليخرجَ بعقله هو

* * *

الفيلسوفُ الحقُّ هو الذى ينتهى من نفسه إلى موضعٍ عقلىٍّ يكون فيه مع الحياة كما يكونُ القاضى فى موضعه العقلىّ مع الحوادث : تأتيه ليحكمَ عليها لا لتحكمَ عليه

* * *

قلةُ الرَّغَبات هى قلةُ هموم

* * *

استطراد

عندما انتهيتُ إلى هذا الموضع من تصنيف هذه الكلمات ، أُلقِىَ إلىَّ كتابٌ ورد من مدينة « حِمْص » يذكر فيه صاحبه ضيقاً وشدة ويسأل : « ما هو علاج الملل النفسانى واليأس الدنيوى ، إن لم يكن الموت ، إن لم يكن الانتحار ؟ »

ثم يرجو أن يتولاَّه أول عدد ينتهى إليه من (الرسالة) كيلا يبنىَ على نفسه ؛ وها أنذا أُعجِّل له كلماتٍ تأتى على أثرها إن شاء الله فى العدد التالى مقالة الانتحار

* * *

كان عُمَرُ بنُ الخطاب — وفى يده الدنيا — يشتهى الشهوةَ من الطعام ثمنها درهم ، فيؤخِّرُها سنة . يُثبتُ لنفسه بذلك أنها نفسُ عُمَر

* * *

ليس الذى ينتحر هو صاحبَ النفسِ العاملةِ بإيمانها ؛ فان هذا تنتحرُ شهواتُه ، ومطامعُه ، وخسائسُه

* * *

الانتحارُ كُفر صريحٌ يذهبُ بالدنيا والآخرة ؛ فاليائس وهو يفكر أن ينتحرَ إنما يقولُ لله بلغة فكره : إنك عاجز

* * *

أنت عجزتَ أيها الانسان فأيقنتَ أنك لا تستطيعُ أن تُغيِّرَ أطوارَ الدنيا ؛ ولكن كيف نسيتَ الذى يستطيع أن يغيِّرها وهو يغيرها كلَّ طرفةِ عين ؟

* * *

لا يمكن أن تُرضيَكَ الدنيا كما أحببت ولا بكل ما تحب ، فلستَ أنت العاصمةَ فى مملكة الله ؛ ولكنَّ الممكن أن ترضى أنت بما يمكن

* * *

لقد عجزتَ أن تنال شيئاً فتعلُوَ به درجة ؛ أفعجزتَ أن تستغنى عنه فتنزل درجة ؟

* * *

فى الأرض ناسٌ على أطباقٍ بين الملك إلى الزَّبال . أفيجتمع الزبالون جميعاً فى مجزرٍ لينتحروا إذ لم يكونوا ملوكاً ؟

* * *

ليست الدنيا بما فيها هى التى ترفعك عند نفسك أو تخفضُك ؛

بل فكرك بما يكون فيه هو يخفضك أو يرفعك . ومن الذى يملأ فكرك غيرك ؟

* * *

سر سعادة المؤمن على ما يجد من الفقر والشقاء فى هذه الحياة ؛ أن فى ضميره من فكرة الآخرة وجوداً إلهياً عظيما فيه الرضى الدائم عن الله ، والصبر الدائم على قضاء الله ، والأمل الدائم فى رحمة الله . فكل حرمان الدنيا يذهب فى الرضى فلا حرمان ، وكل مصائبها تقع فى الصبر فتتحول معانيها ، والأمل الدائم فى رحمة الله قوة للقوتين

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

ربيع الغوطـــة

للأمير مصطفى الشهابى

عضو المجمع العلمى ومدير أملاك الدولة بدمشق

جلست فى الدار فى سفح « قاسيون » (١) أجيل الطرف فى أرجاء الغوطة الفيحاء ، وقد ازينت للربيع وتبرجت وتجلت فتنة للناظرين . وجرت مياه بردى ومشتقاته صخابة جرافة ، قد بجسها شتاء هذه السنة المطار ، بعد أن لبثت ثلاث سنين لاصقة من الجفاف بأرض النهر ، وهى تتنفض وتتموز كأنها ترتقب من يدفعها إلى جنان الغوطة دفعاً ؛ ودبت الحياة فى الأشجار الغبياء ، فأرسلت عساليجها تتنشق أنفاس الربيع العليلة ، واطالت غماليجها (٢) تستقبل أشعة الشمس المنعشة ، ونشرت أوراقها تهيئ للدوح وسائل الحياة وغضارة العيش

وبشر اللوز باقبال الربيع فنور . وأعقبه المشمش فاشتعل زهراً وتضوع عطرا ، وملأ جو الغوطة بهجة وإشراقاً . وغار التفاح والكمثرى والخوخ فمددن إلى الازهرار ، وتلألأن بالنوار ، وسكر الصفصاف المستحى فدلى أغصانه وتمايل ، وانتصب الحور فصعر خده وتثاقل ، وعربد الجوز الدواح فنثر هرراته (٣) ذات اليمين وذات الشمال ، وترزن السرو الجبار المتشائم وصاح قائلاً كلنا للزوال . وابتسم الزيتون بأوراقه الخضر الحانئة ، وقد نخرت أرومته السنون ، وكسر فروعه الدهر الطحون . أما الرمان فلبث عارى الجسد ينتظر الدفء ، فما ازدهى بنوره ، ولا أشعل الجو بناره (١)

وجن جنون النباتات البرية ، فنبتت بين الزروع وعلى صفاف الجداول وفى كل أرض سبخة أو بائرة ، فالخردل هجم على الحنطة فكساها من زهره حللا صفراً ، والنرجس نجم فى مياه المناقع ونثر فوقها دراً وتبراً ، وبدت شقائق النعمان بألوانها الزاهية ، وتجلى الخشخاش بحمرته القانية ، وتضوع البابونج والأقحوان ، واستسرا تحت جنبة (٢) الآس والرمان

وشاركت الطير النبات فهبت تغرد بشتى الألحان ، وتتراقص فى كل مكان . فمن سمانيات تغلغلن بين الزروع خشية الصيادين ، وشحارير سود الجلابيب إن طارت هتفت ، وإن استقرت صدحت ، وسنونوات لا يبرحن فى السماء مدومات ، أو على البعوض هاويات ، وأنواع العصافير ، فى زقزقة وصفير ، كأنها تشكر لباعث الغيث آلاء المطر ، وكأنها تدعو الانسان الى الأخضرين ، لينعم بهما قرير العين

جلست فى الدار أدير الطرف بجنان الغوطة وقراها ، فبدت عن يمينى رياض « النيربين » ، فذكرتنى بأبيات وجيه الدولة ابن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلى بجنوب الغوطتين شجون
فما ذكرتها النفس إلا استخفنى الى برد ماء النيربين حنين
وقد كان شكى فى الفراق يروعنى فكيف يكون اليوم وهو يقين ؟

وبدت جنوبيها بساتين داريا فقلت مع الصنوبرى :

ونعم الدار داريا ففيهـــا صفا لى العيش حتى صار أريا
ولى فى باب جيرون ظبــاء أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا

والتفت الى دمشق فاذا بها غرق فى خضم أخضر كأنها ياقوتة فى نثير من الزمرد ، وبرز الجامع الأموى عظيماً جباراً بمآذنه الشاهقة وقبته العالية التى قال فيها نابغة بنى شيبان من قصيدة غراء وصف بها ذلك الجامع الكبير :

وقبـــة لا تكاد الطير تبلغها أعلى محاريبها بالساج مسقوف
لها مصابيح فيها الزيت من ذهب يضيء من نورها البناز والسيف

قلت رحم الله نابغة بنى شيبان ! فلو عاش فى أيامنا هذه لا فى أيام بنى أمية لقال :

(١) جبل دمشق المشرف عليها وعلى الغوطة
(٢) جمع غملوج ، وهو الغصن الناعم من النبات
(٣) نورة الجوز وأضرابه

(١) لأن زهر الرمان مشخار
(٢) الجنبة صغار الشجر لا يعظم جرمها وإن شاخت

لها مصابيح فيها الكهرباء سطعت يضيء من نورها لبناز والسيف

ورق النسيم وراق الجو ، فتذكرت قول القائل :

يا نسيما هبَّ مسكاً عبقاً هذه أنفاس ريَّا جِلِّقا

لكنني ما كدت أنشق هذ الأنفاس العطرات وأغرق فى بحر من التأملات حتى فتح الخادم مذياع مصر فأسمعنى ألحاناً شجية حملتها أنفاس القاهرة الكهربائية ، فذكرت شتاء مدينة المعز وعهدى به قريب ، ورددتُ قصيدة لى ودعتُ بها تلك المدينة الساحرة ، منها الأبيات الآتية فى نسمات النيل :

أوّاه يا نسمات النيل ساجيةً كم ضمك الصدر تَهيّاقاً وزفّاراً

وكم تعطرت بالريحان وامتزجتْ ريّاك بالروض أفناناً وأزهاراً

ما إن نشقتك حتى خلتُ منتعشاً ماء الحياة جرى فى الجسم أنهاراً

. . . .

وخفق القلب لشتاء مصر ولربيع دمشق معاً ، فكلاهما ساحر جذاب ، وكلاهما مجتلى ذكريات عِذاب ، وفى البلدين رفاق وصحاب ، وأهل وأحباب ، وفيهما للثقافة العربية أفسح رحاب

دمشق مصطفى الشهابى

عصر الخفاء فى مصر الاسلامية

الحاكم بأمر الله

— ٣ —

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الحاكم بأمر الله صبياً فى نحو السادسة عشرة حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة على هذا النحو ؛ بيد أن هذا الفتى القوى النفس ، كان حاكماً حقيقياً يقبض على السلطة بيديه القويتين ؛ ويشرف بنفسه على مصاير هذه الدولة العظيمة ، ويبدى فى تدبير شئونها نشاطاً مدهشاً ، فيباشر الأمور فى معظم الأحيان بنفسه ، ويتولى النظر والتدبير مع وزرائه [1] ؛ وهكذا كان الأمير اليافع يؤثر العمل المضنى على مجالى اللهو واللعب التى يغمر تيارها من كان فى سنه ، وفى مركزه وظروفه ؛ وقد لزم الحاكم هذا النشاط المضنى طوال حياته . وكان الحاكم ذا بنية قوية متينة ؛ وكان منذ حداثته يتمتع بمظهر الجبابرة : مبسوط الجسم ، مهيب الطلعة ، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة ، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد لا يستطيع الانسان صبراً عليها ؛ وله صوت قوى مرعب يحمل الروع إلى سامعيه ؛ وقد كان فى الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الأقوياء ، الذين يذهبون فى زهرة العمر والقوة [1] ؛ وكان أبوه العزيز بالأخص عظيم القامة عريض المنكبين قوى التكوين [2] ، فورث عنه ولده هذه الخواص الطبيعية البديعة ، ولم يبددها فى شهوات النفس التى ينغمس فيها أبناء القصور

وهنا يبدأ عصر الحاكم بأمر الله حقاً ، وهو أغرب عصر فى تاريخ مصر الاسلامية ، وربما كان أغرب عصر فى تاريخ الاسلام كله ؛ عصر يمازجه الخفاء والروع ، وتطبعه ألوان من الاغراق والتناقض مدهشة مثيرة معاً ؛ ولكن هذه الألوان الخفية المغرقة ، وهذه النواحى المتباينة هى التى تسبغ على العصر أهميته وطرافته ، وهى التى تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يصعب اختراقها . ويحسن قبل أن نعرض إلى درس هذه الشخصية العجيبة وقبل أن نحاول استجلاء غوامضها ، واستقراء حقيقتها ، أن نستعرض أولا أعمال الحاكم وتصرفاته ، وحوادث العصر وظروفه ؛ ثم نحاول على ضوئها أن نتفهم روح العصر ، ونفسية تلك الشخصية الفريدة التى أفاضت عليه من خفائها وروعها ، وملأته بنشاطها ونزعاتها وأهوائها ، وتبوأت فيه المقام الأسمى

— ٥ —

تقدم الرواية الاسلامية الينا الحاكم فى صور مروعة مثيرة ؛ فتقدمه الينا أولاً فى صورة جبار منتقم ، وسفاك لا يخبو ظمؤه إلى الدماء ؛ ثم تقدمه الينا فى صورة طاغية مضطرم الأهواء والنزعات ، متناقض الرأى والتصرفات ، لا تكاد تلمس لأعماله باعثاً أو حكمة ؛ شرساً جموحاً ، ميالاً إلى الشر ، خؤوناً وافر الغدر ، لا يستقر على ثقة أو صداقة ؛ وتقدمه الينا على العموم

(١) راجع ابن الصيرفى — الأشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٦

(١) يلاحظ أن العزيز أبا الحاكم توفى فى الثالثة والأربعين ، وأن جده المعز توفى فى السادسة والأربعين ، وأن المنصور والد المعز توفى فى الثانية والأربعين (راجع المقريزى ج ٢ ص ١٦٣ و ١٦٧)

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٠

في ثوب شخصية بغيضة خطرة، فاقدة الرشاد والتعقل، يغلب عليها الجانب الأسود؛ ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحي الخير والخلال الحسنة، فتصفه لنا بالجود والتقشف والزهد في كثير من متاع الحياة الدنيا

«كانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء؛ وكان الغالب عليه الصلاح، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط»[١]. «وكان جواداً، سمحاً، خبيثاً ماكراً، رديء الاعتقاد، سفاكاً للدماء، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً؛ وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها»[٢]. «وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل، والاخافة والأمن، والنسك والبدعة»[٣]. في هذه الصور وأمثالها تقدم الرواية الاسلامية إلينا الحاكم؛ ولا ريب أن في حياة الحاكم وفي أعماله وتصرفاته ما يبرر كثيراً من هذه الأوصاف المثيرة؛ غير أنها ليست كل شيء في هذه الحياة العجيبة الغامضة؛ ومن الخطأ أن نقف عندها في تصوير الحاكم والحكم عليه، ومن الواجب أن نتقصى في حياة الحاكم جوانب أخرى، وأن نحاول تفهم شخصيته ونفسيته على أضواء أخرى

افتتح الحاكم عهد حكمه بقتل بَرْجَوان وصيه ومدبر دولته؛ وكان للجريمة باعث سياسي قوي؛ فلم تكن يومئذ دليلاً على حبه للسفك أو ظمئه إلى الدم، غير أن الحاكم ما لبث أن أتبع ضربته بضربة دموية أخرى هي مقتل ابن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق؛ وكان الحاكم قد حماه من برجوان وأطلق له رسومه وجراياته، وأذن له بالركوب إلى القصر؛ ففي ذات مساء، حين انصرافه من القصر، انقض عليه جماعة من الغلمان الترك كانت قد هيئت للفتك به، فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحاكم (شوال سنة ٣٩٠)[٤] ولم تكن للجريمة بواعث ظاهرة، ولكنا نستطيع أن نعللها برغبة الحاكم في سحق الزعماء ذوي البأس والعصبية، وهي رغبة يدلل عليها كما سنرى في مواطن كثيرة؛ وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية كما قدمنا، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة. ولكن سنرى من جهة أخرى أن الحاكم يسرف في القتل، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعاً، دون حكمة ظاهرة إلى ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائي

وفي سنة ٣٩٣ هـ قتل الحاكم وزيره فهد بن ابراهيم بعد أن قضى في منصبه زهاء ستة أعوام، وأقام مكانه علي بن عمر العداس، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى سخط عليه وقتله، وقتل معه الخادم ريدان الصقلي حامل المظلة، ثم قتل عدداً كبيراً من الغلمان والخاصة[١] (سنة ٣٩٤)، ثم تبع ذلك بمقتلة أخرى كان من ضحاياها الحسين بن النعمان الذي شغل منصب القضاء منذ سنة ٨٩، وعدد كبير من الخاصة والعامة، قتلوا أو أحرقوا[٢]؛ وقتل جماعة من الأعيان صبراً[٣]؛ ولم يك ريب في أن هذه المذابح المتوالية كانت عنوان نزعة خطيرة الى البطش والفتك واحتقار الحياة البشرية؛ وكان أشد الناس تعرضاً لهذه النزعات الخطرة، أقرب الناس الى الحاكم من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة، ولم يكن الكافة أيضاً بنجاة منها، فكثيراً ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الغريبة الصارمة التي توالى صدورها في تلك الفترة. وكان رجال الدولة ورجال القصر وسائر العمال والمتصرفين يرتجفون رعباً وروعاً أمام هذه الفورات الدموية؛ وكان المجتمع القاهري، ولاسيما التجار وأرباب المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع؛ ويروي لنا المسبحي صديق الحاكم ومؤرخه فيما بعد، أن الحاكم أمر في سنة ٣٩٥ بعمل شونة كبيرة مما يلي الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا، فارتاع الناس وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم من رجال القصر أو الدواوين أنها أعدت لاعدامهم، وسرت في ذلك اشاعات مخيفة، فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين والمتصرفين من المسلمين والنصارى في أحد ميادين القاهرة، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا الى القصر، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون، ويسألون

(١) ابن قزاوغلي في مرآة الزمان (راجع النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٦)

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) والذهبي (راجع النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٨)

(٣) ابن خلدون (ج ٢ ص ٦٠)

(٤) المقريزي (ج ٣ ص ٥٨)

(١) المقريزي — ج ٤ ص ٦٩

(٢) المقريزي ج ٣ ص ٣٢

(٣) النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٢١٢)

العفو عنهم ؛ ثم دخلوا القصر ، ورفعو الى أمير المؤمنين عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان فأجابهم الحاكم على لسان الحسين الى ما طلبوا ؛ وأمروا بالانصراف والبكور لتلقي سجل العفو . واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم ، فضجوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا الى ما طلبوا ؛ وتبعهم فى الاستغاثة التجار وأرباب المهن والحرف ؛ وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف ؛ وقد أورد لنا المسبحي صورة أحد هذه الأمانات ونصها : « هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله : إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ؛ وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال ، لاخوف عليكم ولاتمد يد بسوء اليكم ، إلا فى حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك ، وليعول عليه إن شاء الله تعالى ؛ وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة . . . الخ »(١)

وهكذا هبت على المجتمع القاهرى ريح من الرهبة والخشوع ، وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى الذى لم يجاوز يومئذ العشرين من عمره ، وأصبحت نزعاته وتصرفاته مثار الرعب والروع . ولم يك ثمة ريب فى أن القتل كان فى نظر الحاكم خطة مقررة ، ولم يكن فورة أهواء فقط ؛ وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته ؛ ووقعت فى الأعوام التالية حوادث ومناظر من القتل الذريع لانهاية لها ، وكانت تقترن أحياناً بضروب مروعة من القسوة ، وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم ، وفى الأحوال النادرة التى كان ينجو المعزول فيها بحياته ، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك . فنى شعبان سنة ٣٩٨ ﻫ عزل قائد القواد الحسين بن جوهر ، وعين مكانه صالح بن على الروذبادى ولقب بثقة ثقات السيف والقلم ؛ وبعد أسابيع قلائل أمر الحاكم الحسين وصهره قاضى القضاة عبد العزيز ابن النعمان بلزوم دارها ؛ ثم أمر بالقبض عليهما ، ففر الحسين وقبض على عبد العزيز ؛ واضطربت القاهرة لمكانة الحسين ، ثم عفا عنهما وأعيد عبد العزيز الى منصبه ، ولكنهما لم يطمئنا الى هذا العفو المريب ، ففرا بأسرتيهما ، فأمر الحاكم بمصادرة أموالهما ، وسير الخيل فى طلبهما ، وأنفذ اليهما كتب الأمان ؛ فعادا الى القاهرة بعد أن استوثقا من الخليفة بالأمان والعفو ، واستمرا يركبان الى القصر مدى حين ؛ وفى ذات يوم استبقيا بالقصر « لأمر تريده الحضرة » ثم قتلا فجأة (١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠١ ، وصودرت أموالهما ، وعاد الحاكم بعد ذلك فأمن أولاد القتيلين وخلع عليهم(١)

واليك طائفة أخرى من حوادث القتل والسفك التى أمعن فيها الحاكم : فى سنة ٣٩٩ ، قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر ، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا ، وقتل فضل بن صالح من أعظم قواد الجيش وفى العام التالى وقعت مقتلة أخرى بين الغلمان والخدم ، وقتل جماعة من العلماء السنية(٢) ؛ وقبض على صالح بن على الروذبادى لأسابيع قلائل من عزله ، وقتل ؛ وعين مكانه ابن عبدون النصرانى ، ثم صرف وقتل لأشهر قلائل ؛ وخلفه أحمد بن محمد القشورى فى الوساطة والسفارة ، ثم صرف لأيام قلائل من تعيينه وضربت عنقه (سنة ٤٠١) . وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمه غين وكاتبه أبى القاسم الجرجرائى ، وكان غين من الخدم الصقالبة الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته ، فعينه فى سنة ٤٠٢ للشرطة والحسبة ولقبه بقائد القواد ، وعهد اليه بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية ، وعهد بالكتابة عنه الى أبى القاسم الجرجرائى وكان الحاكم قد سخط على غين قبل ذلك ببضعة أعوام وأمر بقطع يده فصار أقطع اليد ؛ ثم سخط عليه كرة أخرى وأمر بقطع يده الثانية فقطعت وحملت الى الحاكم فى طبق ، فبعث اليه الأطباء للعناية به ووصله بمال وتحف كثيرة ؛ ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك حتى أمر بقطع لسانه ، فقطع وحمل الى الحاكم أيضاً ، ومات غين من جراحه (جمادى الأولى سنة ٤٠٤) . وأما أبو القاسم الجرجرائى فقد أمر الحاكم بقطع يديه لوشاية صدرت فى حقه ، ولكنه أبقى على حياته ، وعاش أقطع اليدين(٣)

(١) المقريزى — ج ٣ ص ٣٢ ، ٣٣

(١) المقريزى — ج ٣ ص ٢٣ ، ٢٤
(٢) المقريزى (ج ٤ ص ٨٨)
(٣) النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٢٢٣)

روح المدرسة الانجليزية الحديثة[1]

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

إن الزائر الغريب لمدرسة انجليزية حديثة لأول مرة يلاحظ على الأطفال شيئين :

أولاً : النشاط والاستعداد للعمل

ثانياً : السعادة

فالتلاميذ مملوءون نشاطاً ، وحياتهم كلها بهجة وهناءة ؛ وجوه ضاحكة مستبشرة ، تملأ المدرسة بشراً وسروراً ؛ والجو المدرسي كله حياة ويقظة وانتباه ، وحب للعمل واستعداد لاداء الواجب ، يتمثل فيه روح الوفاء والاخلاص والعناية والدقة فى العمل ، والتعاون بين النظار والمدرسين والتلاميذ . هناك لاتجد تلاميذ يتظاهرون بالعمل وهم لايعملون ، أو يصغون وهم يتثاءبون ، لاترى من يحل مسائل حسابية بطريقة آلية من غير ما تفكير ، أو من ينقل قطعاً إنشائية ، أو كلمات إملائية لايدرك لها معنى

هناك يشتغل الطفل بعقله ويده ؛ فلا يكتفى بتعلم النظريات ، بل يشتغل أيضاً بكثير من الأعمال اليدوية ، ويُعطى مقداراً من الحرية فى العمل ، يعمل على حسب قواه العقلية ، وله رأى خاص به . هناك يعتمد الطفل على نفسه فى كل عمل مع الاستعانة بمدرسه وإرشاداته عند الحاجة . قد يحل المسألة خطأ ، ولكن المهم أنه حاول أن يعمل ، وعمل برغبة ، وتركت له الفرصة فى التفكير ، وفى رسم الخطط وتدبير الوسائل

ولقد حدث فى إحدى المدارس الحديثة للبنات أن معلمة من المعلمات اضطُرت الى الذهاب الى المستشفى يوماً ما ، فرأت رصيفة لها أن الواجب يقضى بمصاحبتها ؛ وكانت ناظرة المدرسة على فراش المرض ، ولسوء الحظ قد حدث لرابعتهن وهى فى طريقها الى المدرسة ما أوجب تأخرها نصف ساعة عن الميعاد ؛ وعلى هذا بقيت المدرسة ولا ناظرة فيها ولا مدرِّسة . فلما دخلت الأخيرة المدْرسة وجدت كل البنات فى أمكنتهن ، يعملن بنظام ، فلقد نظر بعضهن فى جدول أوقات الدروس ، واخترن من التلميذات من يستطعن التعليم فى السنين الأولى من المدرسة ، وأخذت البقية تعمل بنفسها . فكان كل فصل يسير فى عمله بنشاط كالعادة ، ولم يحدث من إحداهن ونية[1] أو تقصير فى العمل ، وكان النظام مستتباً . فمثل هذه الحادثة تبرهن على أن روح المدرسة الحديثة هى : روح التعاون ، والاعتماد على النفس ، وحب العمل ، والفخر بالمدرسة ، والاخلاص لها ؛ وهذه الروح وتلك المبادئ وحدها تكفل نجاح أى مدرسة من المدارس ، وتغنى عن استعمال الثواب والعقاب ، والمنافسة فى المدرسة

فالتلاميذ بالمدرسة الانجليزية مغتبطون بمدرستهم ، يستنفدون جهدهم ، ويبذلون كل ما فى وسعهم فى سبيل تقدمها . محال أن يتمنوا الرفعة على أكتاف غيرهم ، يعمل الكل لمصلحة الكل وينسى نفسه . ومن أظهر منهم مقدرة ومهارة فى أمر ما فمكافأته أن يسمح له بمعاونة غيره من الضعفاء أحياناً

مثل من المدارس الريفية الابتدائية بانجلترا

من المدارس التى رأيتها مدرسة ريفية ابتدائية داخلية تقبل التلاميذ بعد الانتهاء من قسم الأطفال . فيها يستيقظ التلاميذ مبكرين ، فيرتب كل منهم سريره ، وينظفون مما حجر النوم .

(١) من كتاب « نظام التعليم فى انجلترا » تحت الطبع

(١) الونية : التفريط والاهمال فى العمل

وفى سنة ٤٠٥ هـ قتل الحاكم قاضى القضاة مالك بن سعيد الفاروق ، وقتل الوزير الحسين بن طاهر الوزان ، وعبد الرحيم ابن أبى السيد الكاتب ، وأخاه الحسين متولى الوساطة والسفارة ؛ وقلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات ، ثم قتله لأيام قلائل من تعيينه . وهكذا استمر الحاكم فى الفتك بالزعماء ورجال الدولة والكتاب والعلماء حتى أباد معظمهم ؛ هذا عدا من قتل من الكافة ، خلال هذه الأعوام الرهيبة ، وهم ألوف عديدة ؟

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان
المحامى

وبعد ارتداء الملابس يقوم بعضهم بمساعدة الطاهية فى إعداد الطعام ، أو فى إعداد المائدة وتنظيمها . وبعد تناول طعام الافطار يساعدون فى تنظيف الآنية وتنشيفها

ومدة الدراسة النظرية فى الصباح أربع ساعات . وبعد الظهر يشتغل التلاميذ بالزراعة فى حديقة المدرسة ، أو بالنجارة فى حجرة النجارة التى يقوم بالتعليم فيها أحد النجارين . وفى هذه المدرسة تظهر روح التعاون بأجلى معانيها : فمن التلاميذ من يقوم باصلاح ما يحدث فى بناء المدرسة من خلل ، ومنهم من يكوى الملابس ، ومنهم من يخيط ما تحتاج إليه من رتق ، وهكذا

وتتصل بالمدرسة حديقة كبيرة ، تبلغ مساحتها ثلاثة أفدنة ، بها قسم لتربية الطيور والحيوانات الداجنة ، ويتولى بعض التلاميذ إطعامها والعناية بها . ويقوم التلاميذ أنفسهم بزرع ما أمكن من أنواع الخضر والفواكه والأزهار فى تلك الحديقة ، وبهذه الوسيلة تستطيع المدرسة أن تستغنى عن شراء كثير من المواد الغذائية وغيرها . وتجمع بين التعليم النظرى والعملى أو الصناعى فتفتح كثيراً من السبل أمام كل تلميذ حتى تنتفع بميوله ، وتعرف ما رغب فيه من الأعمال ، فتوجهه حيث يحب ، ويختار له من سبل الحياة ومن المهن والصناعات ما يتفق مع ميوله الطبيعية . فالمدرسة تعطيه الفرصة فى أن يعرف شيئاً عن النجارة ، والزراعة ، والحياكة ، والكى ، والبناء ، والرسم ، والتصوير ، والموسيقى ، بجانب المواد المدرسية الأخرى . وهذه هى التربية

ولا يسمح لأحد من التلاميذ بأكل شىء من فواكه الحديقة فى غير مواعيد الأكل . ومن يخالف ذلك يحرم هذه الفاكهة حتى ينتهى فصلها . وهذا عقاب طبيعى ؛ لهذا لا يجرؤ أحد أن يقطف شيئاً من الحديقة . ولكل تلميذ صوان خاص به ، يضع فيه أدواته . وللناظر وحده الحق فى الاطلاع على ما به

وبعد تناول الشاى يسمع التلاميذ اللاسلكى ، أو يتعلم بعضهم العزف على المعزف (البيانو) ، ويلعبون ألعاباً رياضية ككرة المضرب

وفى يوم الأحد يذهبون صباحا إلى الكنيسة مع أساتذتهم ، ثم يخرجون للرياضة فى جهات خاصة . فأوقاتهم منظمة ، موزعة بين العمل واللعب ؛ يلعبون حيث يجب اللعب ، ويعملون حيث يجب العمل . ويجتهد ناظر المدرسة فى ألا يترك لأى تلميذ الفرصة فى أن يفكر فى أعمال شيطانية ، فيدعه يشتغل بأى عمل من الأعمال ، حتى لا يفكر فى أى عثو أو إفساد فى المدرسة

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أى مفسدة

وإن دروس مشاهدات الطبيعة ، والجغرافيا ، والتاريخ كثيراً ما تكون فى الخارج على شاطىء نهر أو فى حديقة ، أو زيارة لدار آثار ، أو حصن ، أو كنيسة قديمة . وفى كل أسبوع يختار بعض تلاميذ المدرسة لزيارة مدرسة أخرى ، لتكثر تجاربهم ويروا أشياء ربما لم يروها من قبل فى مدارسهم . وبذلك تتبادل المدارس الزيارات فى يوم من أيام الأسبوع

وكثيراً ما يقف ناظر المدرسة ليباشر التلاميذ وهم يشتغلون فى حديقة المدرسة ، ولا يعزب عنه شىء فى مدرسته ؛ فهو خبير بكل تلميذ ، وبالظروف المحيطة به ، وبنقط الضعف فيه ، وبوسائل العلاج . فيمكنه أن يقول إن (جاك) قوى لأن أمه كثيرة العناية به . أما (جان) فضعيف لأنه لا يجد ما يكفيه من الغذاء ، وهذا جيد فى التاريخ ، وذلك يحتاج إلى العناية بالحساب ، وهكذا

والمدرسون يعتبرون تلاميذهم أبناء يفكرون فيهم كما يفكرون فى أبنائهم . ففى تلك المدرسة وفى معظم المدارس الانجليزية تجد التلميذ محباً للألعاب الرياضية ، كثير المعلومات ، ناضج الرأى ، مرتب الفكر ، بعيد النظر ، قوى الملاحظة ، يستطيع التعبير عما فى نفسه ، يحب النظام ، والدقة فى العمل . يعرف معنى الطبيعة ، ويقدر ما فيها من حياة وجمال ، ويمكنه القيام بكثير من الأعمال ؛ وهذه نتائج العناية بالطفل فى المنزل والمدرسة والبيئة ، نتيجة العناية بالتربية العملية لاعداد كل فرد للحياة الكاملة

محمد عطيه الابراشى

تصويب

وقع فى مقال الأستاذ المازنى المنشور فى العدد الماضى الممتاز خطأ مطبعى لا ينبغى أن نغفله وهو إسقاط الياء من (عبيد الله بن عمر) فجاء اسمه مكرراً فى المقالة (عبد الله بن عمر) والصواب اثباتها

محاضرة قيمة:

فى الشعر...

للمسيو پول فاليرى

عضو المجمع الفرنسى

عرض وتلخيص للأستاذ محمد روحى فيصل

سيداتى وسادتى :

حديثنا الليلة إليكم فى الشعر ! والموضوعُ دائر كما تعلمون الآن فى كثير من الصحف والمجالس ، ولعل الغرابة أن ينال الشعرُ الاهتمام وتُبذل للفن الجهود فى زمن مادى أخذته الواقعية المحسوسة ، وطغت عليه الوضعية العلمية ، وسادت فيه الفكرة الاقتصادية !

للشعر فى الافهام معنيان : أولهما أنه مجموعة العواطف والانفعالات التى تُهيجها فى نفوسنا أحداث الزمن ، ومجالى الطبيعة ، ومعانى الوجود ، وألوان الحياة ، فنقول منظر شعرى ، وظرف شعرى . وثانيهما أنه فن قائم وصناعة عجيبة ، يتناول الأهواء المشبوبة بالتنسيق والتأليف والجلاء ، ثم يبرزها لغة جميلة تطرب لها الأذن ويهتز منها القلب ! وبين المعنيين صلة شديدة وتباين كتباين الرائحة التى تضوع من الزهر ، والرائحة التى تضوع من الكيمياء

ومهما يكن من شىء فالناس لايزالون فى لبْس من المعنيين ، وحيرة فى الشعر والشعور ؛ وكان من أثر هذا أن طائفة من الأحكام والنظريات والمؤلفات قد فسدت وغمُضت لأطلاق الكلمة الواحدة على معنيين شتيتين وإن اتصلت أسبابهما اتصالاً وثيقاً !

فالشمس الغاربة ، والغابة الوارفة ، والقمر الناعم ، والبحر العظيم — هذه وغيرها تبعث فى الناس حين يستشرفون لها انفعالات وجدانية تختلف فى الشدة والمدة والنقاوة والأثر ؛ وقد تكون أزمة الهوى ، وفاجعة الموت ، ونازلة الفقر ، أسباباً مباشرة لاضطراب نفسى عميق أو خفيف يلوّن الشعور ، ويشتت المعاش ، ويبدل المثل الأعلى ! ولكن هذه العواطف الانسانية المعروفة تغاير كل التغاير ما نسميه « العاطفة الشعرية » ، ولعل بيان أوجه التغاير والاختلاف لايخلو من عنت ومشقة ، لأنهما فى الواقع متحدان اتحاداً شديداً ما ينفصل أحدهما عن الآخر أو يبرز له ويسمو عليه ، فالعاطفة الشعرية تتصل أبداً بالحب والألم والخوف والغضب ، وما الى هذا من مشاعر النفس وأهواء القلب

وإنما العاطفة الشعرية عندى إحساس قوى بحياة غريبة ، وشعور واضح بعالم جديد جرّده المبين من نفسه لنفسه ، ثم قوّم أشياءه وأحداثه وأشخاصه بالميزان الذى له خاصة ، وخلع على ما فيه قيماً حديثة ، قد تتفق وقد لا تتفق مع القيم المألوفة التى تواضع الناس عليها فى حياتهم الدارجة ! ولئن تشابهت أشياؤه بالأشياء ، وتعارفت الأحياء بالأحياء ، فلقد يشملها جميعاً قانون النفس العام ، وتصطبغ كلها بالشعور الانسانى ، تتجاذب تلك الأشياء والأحداث والأشخاص وتتنادى وتطرد لغاية عملها فى دقة ونظام ؛ والأولى أن نقول إن الأشياء والأحداث والأشخاص تؤلف فى العالم الجديد لحناً موسيقياً منسجماً لا ضجة فيه ولا نشوز ، يتملاه الشاعر ويستوحيه ويخضع له ! دنيا رحبة هادئة جميلة هى ملك المبين لأنها فى نفسه ، ولأنها من خلقه ! ولعل هذا العالم الشعرى يماثل من وجوه عديدة عالم الرؤى والأحلام التى تضطرب فى خيال المرء ، وتطيف فى رأسه الغافى . . .

ولقد أحب أن أشير هنا ، وقد انحدرت « الأحلام » مع الحديث ، إلى أن جماعة الابتداعيين (الرومانتيك) وأدباء العصر الحاضر قد خلطوا بين الشعر والرؤيا ووحّدوا معناها ! نعم ، قد تكون الرؤيا والأحلام صوراً شعرية خالصة ، ولكنها صور بارزة مؤلفة من عمل المصادفة والأتفاق ؛ وما دامت كذلك فهى صور شعرية بالمصادفة والاتفاق

إن عالم الرؤى عالم غريب قد ملأ ساحته الشعورُ المبهم ، وانفرط فيه عقد المنطق المحترم ، وهبّ عليه إدراك غير إدراكنا ، وتفكير غير تفكيرنا ! فهو عالم مغلق تبرز الأشياء فيه على غير حقيقتها ولونها المعهود ، وهى إنما تصطبغ بأهوائنا المكظومة ومُثُلنا المرجوّة ورغائبنا الكامنة . والعاطفة الشعرية حالة نفسية كهذه الحال الطليقة تظهر على غير انتظام ، وتعمل فى غير استقرار ، وتضمحل من غير انذار ! لقد تقوم فى أنفسنا بالمصادفة وتختفى عن أعيننا بالمصادفة ! وعجيب — ياسادتى — أثر المصادفة العابثة فى ظهورها وفنائها ! (تصفيق)

— ٢ —

يكر الزمان مسرعاً ولا يؤوب ، وتتجدد الحياة مشرقة ولا تتشابه ، وتزول الصور ماضية بدون أثر ! والله القادر الحكيم إنما تفرد بالطى والنشر ، والمحو والابداع ، ثم أودع فى الحياة معنى الموت ، وفى الجذوة قوة الركود ، وفى الخلق سر الأعجاز ! ! ولكن الشاعر المبين لن يرضى عن اللحظة الحية التى تطوى إلا إذا سجلها على القرطاس ، وأمد فى عمرها ، وأثبتها على الدهر ، كأنما يعارض انحدار الأشياء الى صندوق العدم ، أو يغالب عبث الليالى وتطور الوجود ، فهو يقف بالذاهب الآفل وقفة طويلة ممعنة فيقيد خواطره ، ويعلن أحاسيسه ، ويحيي حبه ، ثم ينتزع من الحياة قطعاً يقذفها فى إطار خالد جميل الى العصور التى تليه ، والأجيال التى تضطرب بعده على الأرض ! كذلك استطاع أن يستمتع بالعاطفة الشعرية الطليقة وأن يستحضرها فى نفسه كلما أراد كما تستحضر الرؤى بالتنويم ؛ والفنون كلها تقلب العرض الزائل إلى حال دائم ، والعمل الفنى إنما هو الآلة الحسية لهذا التوليد العجيب والخلق الموفق ؛ فالموسيقى والنحت والأدب والتصوير طرائق مختلفة للتمثيل والتعبير اقتضتها كثرة الحواس الظاهرة ، واشتباك النفس الباطنة ، وغموض المدنية الحاضرة ...

التمس الشاعر طائفة من السبل الملتوية لاستحضار العاطفة الشعرية ، ورياضتها على الفن . ولعل أقدم السبل المشروعة ، وأعمقها أثراً ، وأشدها تركيباً هى اللغة ! ولكن اللغة بطبيعتها المادية وسلطانها الواهى واستخدامها العملى أجهدت الشاعر أيما إجهاد ، وهو الذى يقوم بها الشعر ويؤلف منها الجرس !

أرجو أن أظفر — أيها السادة — بعرض ما يكابد الشاعر من آلام ، ويبذل من جهود ، ويغالب من مصاعب

إن اللغة كما ذكرت أداة قديمة يخلص الناس بها إلى حاجات العيش ومطالب الجسد ، فهى على هذا أداة سمجة خلقتها المصلحة ، وشوهتها الظروف ، وأخضعتها الشهوات ! فقيم الكلمات ، ومدلول الألفاظ ، وقواعد التركيب ، وفن الكتابة ، ومخارج النطق إنما هى أُلْهِيَة من الألاهى الطريفة نبعث بها على ما تقتضيه المآرب وترتضيه الأهواء . ولقد نجل مقررات المجمع الأدبى ، ونقدر عمل الطباعة والصحافة فى تحديد معنى اللفظ وكف شِرّة الفرد ، ولكن خصائص اللغة من حيث قدرتها على إبداع الجرس الموسيقى وتشقق المعنى الواحد فيها عن كثير من المعانى المندرجة لم تجد — وا أسفاه — من يرد عنها عادية النزوات وعُرف الأوضاع ؛ فقد ننطق بالحرف ونرسل الكلمة كما تقوى حناجرنا ، وتنفرج شفاهنا ، وتتسع ثقافتنا ، وتزخر نفوسنا فنحرف الكلم عن موضعه ، وندخل الفوضى على المفهوم ، وننشر الشك فى قيمة اللغة ! والحق أن اللغة لو أنها لم تصلح لغايات العيش ، ولم تشتمل على معنى السعادة لما كانت تكون وسيلة من وسائل الشعر والفن ، ومطلباً من مطالب الدقة والتعبير

هكذا ، يا سادتى ، شاء الحظ العاثر المشؤوم أن يستخدم الشاعر أداة حسية عملية ليحقق بها فناً أبى إلا أن يثور على المعاش ، ويشرف على العمل ، ويسمو على المادة . . ! !

أما الموسيقى السعيد — والهنى على حظه — فقد يشرع فيما اختص له وتوفر عليه ، ووسيلته جاهزة سامية مستقلة ، لا يشركه فيها أحد من الناس ، ولا تتدنى الى مالم تخلق له ، وهو إنما يعمد إلى مادة قد صهرتها العصور ، وهيأتها الطبيعة ، وحددتها الغاية ! لشد ما يشبه الموسيقى الصناع نحلة ولودا جاءت لتفرخ فوجدت الخلية قائمة على أحسن ما تقوم البيوت ، مقسمة على أدق ما تقسم الغرف ، فولدت مرتاحة هانئة ثم اهتمت للعسل وحده تجمعه من هنا ومن هناك ! كذلك رجل الألحان يؤلف فنه من غير جهد ، ويسلك سبيله بهجاً طروباً كأنما اللحن قد انسجم وبرز واكتمل قبل أن تمسه يد الموسيقى الفنان ! !

ذلك بأننا نعيش بالسمع فى عالم الأصوات ؛ ونحيا بالأذن حين تعمى العين ويعيا اللسان ؛ والأذن تدرك بطبيعتها أن الأصوات المتعالية إنما تتألف من وحدات بسيطة بالغة البساطة ، صغيرة بالغة الصغر ، حتى كأنها لا تقاس بشىء أو تلمح لوحدها ، وهذه الوحدات قد تنسجم لمسافات محدودة ، وتطرد بنسب معينة ، فتكون الصوت الموسيقى ، وقد تضطرب بغير نظام ، وتسير على غير منهاج ، فتكون الضجة الراجفة . فالأذن تعلم بالغريزة مكان الوحدة من الجرس ، وتتذوق بالفطرة نور الجمال فى الهمس ، وتدرك أن الفرق بين النغم والضجة كالفرق بين النقاوة والكدورة ، أو بين

النظام والفوضى ، ثم جاء العلم الطبيعي فأتم إدراك الغريزة وفطنة الأذن ، وهو العلم القديم الدقيق ، فقاس النسب ، واخترع الآلات وأبدع من الألحان مالا تستطيعه دنيا الطبيعة بذاتها ...

وللموسيقى عمل السحر في النفس ، تخلق جواً خاصاً بها لستُ أدرى ماطبيعته ، وإنما أعلم أنه جو هادئ جميل يتخدر فيه الشعور ، وتطير العاطفة ، ويحلو التخيل ، وتبرز الأحلام ! ولو أن لحناً شجياً انبعث خافتاً من كمان في هذه القاعة الرحبة التي يهزها صوتي المضطرب المتعاظم لرأيتكم فجاءة تميلون الرؤوس وترهفون الآذان إلى مصدر اللحن ، تتحسسونه وتتذوقونه ، وتمدونه في أنفسكم وأنتم لا تشعرون ! أفلا فطنتم إلى الأشعة القوية التي سطعت عليكم من شعاع لطيف ، وإلى الدنيا الحالمة التي طغت عليكم إثر جرس خفيف ؟ ولقد يعطس شخص أو يقع كرسي أو يُفتح باب فتستيقظ أنفسكم الحالمة وكأنما صار لها مايصير للزجاج إذا كسر ، أو الحبل إذا تصرّم

تلكم الألحان الهادئة ، والآذان الواعية ، تعين الموسيقى على إحياء النفوس من غير تعب ؛ أما لغة الشاعر فكما علمتم ألفاظ جامدة مبهمة ، تخاطب الأذن والنفس على السواء ، وتدخل اليهما مزيجاً مضطرباً من الأصوات والصور ، وتثير فيهما ألواناً متداخلة من العواطف والميول . وهنا موضع الشذوذ ، فلستُ أعرف أثراً متداولاً أفرط في الغموض والاشتباك كاللغة ، ولقد تقول كلاماً صحيحاً يقبله العقل ولكنه لا يهز الأذن ولا يطرب القلب ، أو تقول كلاماً منسجماً جميلاً ولكنه خلوٌ من التفكير والمعاني ! وليس أدل على اشتباك اللغة من نشأة هذه العلوم المختلفة التي تتظاهر كلها على شرحها وتفسيرها ، فتم علم النقد والأدب والبلاغة والمنطق والاشتقاق والنحو تشترك جميعها في الكشف عما يحجب الألفاظ من الابهام والتعقيد . ولن يستطيع المبين أن يتجاهل هذه العلوم أو يثور على سلطانها أو يكتفي بالتوقيع على الأذن دون النفوذ إلى النفس !

ولكن الكلام كلامان : منثور ومنظوم ، والنثر والنظم مظهران قويان للغة ، وبينهما حدود على وضوحها متداخلة متشابكة ... « تصفيق شديد »

— ٣ —

أذكر أني كنت أحاضر مرة في هذا المعنى طائفة من الأجانب ، فلما بلغت هذا الموضع من الحديث إذا أحد المستمعين يتلو على رسالة طريفة بعث بها الكاتب (راكان) إلى صديقه (شابلان) يقول فيها : « . . . وأنت تستطيع أن تنعت نثرى بما شئت من الظرف والكياسة والبساطة ، فلقد اعتزمتُ على ألاّ أحيد عن نصائح أستاذى الكبير (مالرب) ولا ألتزم مايلتزمه غيرى من الوزن والايقاع والجرس ، وحسبي الوضوح من تاج أزين به نسج الفاظي ولفتات ذهني ! كان مالرب الذكي يشبه النثر بالمشي ، ويقرن الشعر بالرقص ، ويقول إن ما نفعله مرغمين يستحق التسامح والاعتدال ، ثم لا بد فيه من التجاوز والاهمال ، وأما ما نعمله باختيارنا ورغبتنا فمن السخرية أن يكون المرء فيه ضعيفاً أو وسطاً ، فالأعرج مضطر إلى المشي اضطراراً ، ولكنه متحذلق سخيف لو راح يرقص على القالس والخطوات الخمس »

إن تشبيه النثر بالمشي والشعر بالرقص تشبيه خصب جميل لا أعرف أصح منه ولا أدق ولا أشمل : فالمشي كالنثر يقصد به صاحبه أن ينال غاية ماثلة ويحقق فكرة مرسومة ، فهو يرجو شيئاً ، ومن أجله يمشي ، ولعله لم يدب برجليه ويضرب في الأرض إلا لأن الباعث قد تحرك فيه وألحّ عليه ؛ وظروف المشي ، أعني طبيعة الشيء وحالة البدن والأرض واشتداد الرغبة ، هي التي تحدّد سرعته وتعيّن وجهته ؛ فالمشي على هذا واسطة قائمة تزول متى برز وجه الغاية ، أو هو فعل متجدد سوف ينطوى بعد حين . أما الرقص فهو هو الواسطة والغاية ، ليس يبغي ولا يسير على غير هدى ؛ ولئن قُصد به شيء فهو الرياضة على الفن الجميل ، والشعور بالحياة السعيدة ، والاستمتاع بالمثل الأعلى ! على أن الرقص يستخدم نفس الأرجل والأعضاء والأعصاب التي يستخدمها المشي ، وكذلك الشعر أداته نفس الكلمات والصور والمعاني التي يقوم بها النثر عند البيان

إنما يمتاز الشعر من النثر بأنه يتناول الألفاظ على نحو من التركيب والتوجيه يخالف ما يتناول منها النثر في أغلب الأحيان ، فنحن نعجب بالكناية والمجاز في الشعر أشد العجب ، بل نحن لا نعجب بالشعر إلا إذا كان كله أوجله كناية ومجازاً . أما القول

بوحدة الشعر والنثر فهو قول خاطئ لم يقره النقد الصحيح ولم يسغه الذوق الحديث ، وَلعل ما يجوز في أحدهما لا يجوز في الآخر على أوجز تعبير

والمشى كالنثر يسلك به صاحبه أخصر الطرق وأقومها وأقلها عوجاً ومنعطفات ليصل إلى بغيته التي يرجوها دون تريث ولا تذبذب ، ولكن الرقص بخلاف ذلك لا يحلو إلا إذا أكثر من الروحات والغدوات ، وأفرط في اللف والدوران ، وأمعن في الجيئة والذهوب ؛ ولو سمح لنا الرياضيون لقلنا إن الخط المستقيم سبيل الماشي والناثر ، والخط المنحرف سبيل الراقص والشاعر !

تلك السماء تسح مطراً — هكذا يعبر الناثر في نزول المطر الشديد ، وهكذا عُلِّمنا منذ الطفولة على الكلام ، أما الشاعر فلن يبين كما يبين الناثر ويتكلم الناس وإنما يكسو الحقيقة العارية ، ويزين الصورة الواقعة ، ويعرض الحس في إطار رائع يبهر البصر ويعجب البصيرة . وما ينبغي للشاعر الفنان أن يقول « تلك السماء تسح مطراً » حتى تحمل المظلة وتتقى البَلَل لأن « تلك السماء تسح مطراً » قاعدة الكاتب الناثر ، ينشئ فيوجز ويصرح ثم لا يجمّل ولا يبالغ

يمشى الرجل متثاقلا أو مسرعاً إلى غايته ، فما يكاد يبلغها حتى يقف قائماً لا يسعى كأنما التثاقل والاسراع كانا من أثر الحاجة والالحاح ، فالرجل يكف عن المشى لأن علة المشى قد زالت ولأن غاية السعى قد برزت ! وهذا الأعرج الضعيف الذى ذكره مالرب في حديثه إنما يجلس مستوياً على مقعده كما يجلس الراكض العانى بعد طول اللهث والتعب . كذلك لغة النثر تضطرب وتموت في الذهن متى عرف معناها واستبانت غايتها ؛ فهذه محاضرتى إنما ألقيها على مسمعكم لتفهموا عنى ما أحب وتعتقدوا بالذى أعتقد ، فأنا أقول الآن نثراً ، ومتى انتهيتُ من الكلام وارفضّ جمعكم الحافل طارت الألفاظ سريعاً من ذاكرتكم ، وبقى الأثر منطبعا في أذهانكم كأنما أقول ما أقول من الكلام المنثور لأدفنه بيدى وأذيبه متعمداً ، ولقد يتفاعل هذا الأثر الحديث مع غيره من الآثار السابقة كما تتفاعل فيما بينها عناصر الكيمياء ؛ ومهما تكن نتيجة التفاعل الفكرى فالألفاظ التى أقذفها إنما أقذفها لتتلاشى بعد حين كما يتلاشى البخار في الفضاء . وكال محاضرتى أن تفهموا معناها لا أن تحفظوا مبناها ، لأن المعنى متى أشرق في الذهن ووضح في الخيال وجد اللفظ سجناً يحدُّ من سعته ويضعف من شأنه ؛ فالفهم والدقة والوضوح غاية النثر التى لا غاية له غيرها وأعنى أن الكلام المنثور يحيا حياة قصيرة ثم يموت . . .

وما ينبغى أن يحيا النثر إلا حياة قصيرة ثم يموت بعد أن يبلغ رسالته تامة صحيحة واضحة ! ولكن الشعر خالد تتجدد ألفاظه في القراءة ، وتحلو معانيه عند الاعادة ؛ وقيمة الشعر في شكله الظاهر وكلماته المزجاة ، قد انتظمت كما ينتظم العقد وانسجمت كما تنسجم الموسيقى ؛ فرؤوسنا تحفظ اللفظ تتلوه مترنمة هازجة وتعيده على نحو ما سمعته في الرصف والاتساق . ثم لا تبالى ان ثملت أو حزنت أو ثارت مادام في إنشادها رنة الفرح أو أنة الألم أو نزوة الهوى . ولقد جهل قوم كثيرون طبيعة الشعر ، وهاموا في وضع الحدود وتبيان المعالم فما نجحوا ولا استراحوا ؛ وعندى أن الشعر لفظ جميل تستمتع به الأفهام الراجحة ، وتتناشده الشفاه اللاغية ، وتهضمه النفوس الواعية . ثم تخرجه كما كان لفظاً جميلاً تبقى جدته على الزمان كأنما يستعان في « ميكانيكية » متشابهة قوية رائعة . . .

هاتان نقطتان ثابتتان تقابل إحداها الأخرى على مسافة صغيرة ، يتأرجح بينهما رقاص مضطرب كرقاص الساعة ، قد تدلى وتذبذب في جيئة وذهوب . أما النقطتان الثابتتان المتقابلتان فهما اللفظ والمعنى ، أو الشكل والفكرة ، أو الجرس والعاطفة ؛ وأما الرقاص المضطرب فهو النفس المتصفحة الممعنة ، تقرأ القصيدة المنظومة أول ما تقرأ ، فتجوز اللفظ لتفهم المعنى ، وتنسى الشكل لتذكر الفكرة ، ثم تخلص من الجرس إلى العاطفة تستطلع مطاويها كما هو الحال في التخاطب والكلام ، وهنا في هذه السطور يتساوى النثر والشعر ، ولكنه طور خاطف لا يلبث أن يزول . ذلك أن النفس القارئة تكر راجعة بعد هذا إلى اللفظ تعيده وتتملاه . ثم لا ترى خيراً منه صندوقاً يضم أشتات المعنى ، ويحفظ دقائق الفكرة ، ويعلن جمال العاطفة ! تعود إلى اللفظ بعد ما عرفت المعنى كما يعود الرقاص من جولته إلى حيث ابتدأ في الجولان ! وهكذا تضطرب النفس القارئة بين اللفظ والمعنى كما يضطرب الرقاص بين النقطتين الثابتتين المتقابلتين ، وهذا

الاضطراب بين الظاهر والباطن هو الذى أسميناه « بالعاطفة الشعرية » فى صدر المحاضرة ، وهو غاية الشعر التى لا غاية له غيرها ، ولعل الشاعر الموهوب من يختار اللفظة الصالحة لأحداث الاضطراب النفسى ، وإحياء العاطفة الشعرية

فالشعر كما أراه يفترق عن النثر ولا يلتبس به ، وهو أشد ما يكون بعداً وتسامياً عن القصة والرواية اللتين تصفان حوادث الواقع وتمرضان مشاهد الحياة ، وهذا التباين نلمحه واضحاً فى الوضع الطبيعى الذى يأخذه قارئ الرواية وقارئ الشعر ، فالأول ينساق مع تيار الحوادث ، فيفخر أو يغضب أو يفرح أو يحزن ، وقد وضع جبهته بين كفيه ، وركب رأسه فيما يقرأ ، وتعجل التلاوة ليأمن الذى يلى ويطمئن للخاتمة ، فجسده غائب وحواسه فارغة ، وعقله منغمس تائه لا يشعر بما حوله ولا يدرك إلا ما هو فيه ، ولو أنصفنا لقلنا إن قواه الجسمانية قد انحلت ، وأن قواه النفسانية قد انقلبت عقلاً يمعن ويتلو ويتأثر ، أما قارئ الشعر فلا تتقسم طبيعته ولا تتوزع قواه ، وإنما يذهب فى القراءة بجوارحه كلها ما دق منها وما ظهر ، ما رق وما غلظ ، ما شرف وما سفل ؛ فالقصيدة تهيج نفسه وعصبه ، وتوقظ ملكاته الحسية والفكرية . ثم تربده على أن يتصور الأشياء ويتمثل الحقيقة كما هى غير محرفة ولا ملتوية ولا مضطربة ! !

ولكنى على هذا ألمح بين الشعر والنثر درجات من الصور خافية متوسطة تربط قطبين متقابلين فى الأدب ، وتصل مظهرين قويين للغة ، ثم تنشئ بينهما حدوداً على وضوحها متداخلة متشابكة . . .

— ٤ —

أينظم الشاعر مضطراً أم ينظم مختاراً ؟

هذا آخر ما أفكر فيه وأتحدث عنه ، والغريب أن الباحثين لم ينتهوا بعد من تقرير شىء فى هذا . فالجدال عنيف ، والتعقيد ظاهر ، والعمل شاق . وقد يئست طائفة من الشعراء وتبرمت بالقريض ، ثم قالت : إن مهنتنا تضنى النفس وتأكل القوى ، وصاحبنا مالرب يزعم مخلصاً أن الشاعر الذى ينهى مقطوعته الفنية وجب أن يهدأ مرتاحاً بعد ذلك عشر سنوات ! !

ينظم الشاعر . . . ولكنكم تدرون متى ينظم الشاعر ، وما حاجتى إلى شىء تعرفونه حق المعرفة . ينظم الشاعر حين يفيض قلبه ويمتلئ صدره ، فينطلق لسانه ويقول شعراً ، ولكم وددت أن يكون هذا الرأى الفطير صحيحاً سديداً ، إذن لاحتمل الشاعر تكاليف الحياة ، ورضى المبين بميسور الشقاء ! ولكن القريحة الفنية قد تتبلد وتظلم حتى لا تمى أمراً ولا تنطق حرفاً ، فمن يقول بهذا الرأى الغرير يخضع الشاعر لسلطان القدر العابث ، ويغدو الانتاج الشعرى حينئذ مرهوناً بالمصادفة المواتية واللمحة المشرقة ، أو متصلاً بالوحى العالى والموهبة الخارقة . ولست أعلم افتئاتاً على حرية الشاعر وامتهاناً لكرامته كهذا الرأى القائل العاثر يجعله منفعلاً لا فاعلاً ، وحاكياً أميناً يقول ما يلقى إليه من الكلام . وهو ، على هذا ، يحاسب كما يحاسب مدير الصحيفة المسئول ، فما كان خيراً قالوا هذا من عند الله ، وما كان شراً قالوا هذا من عنده ! والمجيب أن الكثرة الغالبة من الشعراء تؤمن بهذا الرأى وتناضل عنه ، أو هى على الأقل لا تجد الغضاضة الذليلة بأن ترضى قانعة بمشيئة المصادفة والوحى

توافرت الأدلة وأثبتت التجربة أن الشعر الذى يعترف بجودته وبلوغه المنزلة الرفيعة التى تملى على القارئ أثر الوحى والاحساس النفسى ، إنما هو فى الواقع من عمل الجهد الدائب ، والارادة الصابرة ، والتفكير العميق . أفلا نحس بهذا المجهود الكبير يبذله الشاعر حين نقرأ قصيدة من قصائده الطويلة الجميلة ؟ فنحن نخطئ كثيراً إن حسبنا أن الشعر وحدة لا تقبل التجزئة ؛ وموهبة لا تقوى على المران ، وأثراً لا يخضع للزمن

لقد يمتاز الشاعر من بين الناس كافة بلحظات مشرقة خاطفة تعصف بذاته وكيانه عصف الريح بفروع الشجر ، فتتفتح لديه مغاليق نفسه ، ويطل على دنياه الكامنة ، ويلمح عجائب الروح . تلك لحظات ثمينة عزيزة تضىء ما اختبأ بين اللحم والدم ، وتبعث من المعانى والصور مالا يفهمها أو يقدرها إلا الشاعر وحده ، لأنها مختلطة بأوضار المادة وصادرة عن اسرار الظلام ؛ وهى معان وصور لا تثبت للمنطق الظاهر ولا تلين للبيان الشعرى ، وكل ما فى الأمر أنها قطع تنتثر من أعماقنا على حالها الطبيعى كما تنتثر الأحجار الكريمة من جوف البركان . ولقد ينبغى أن نطرح الأوشاب ، ونحتفظ بالعنصر الصالح النقى لنذيبه فى قالب جديد ونقدمه جوهرة خالصة للناس

فالذين يؤمنون بالوحى الشعرى يقتلون العمل والابداع ،

ويرضون بالشاعر وسيطاً تملي عليه القـدرة القادرة ما تشاء من ضروب القول وألوان المطالعة ، وما لمثل هذا يُسخر الفن ويخلق الشعراء ! لشدّ ما هزئنا بالذين كانوا يؤمنون بحلول الجن أجساد البشر ، ثم يُجرون على ألسنتهم ما يشتهون من الحجج واللهجات والنزوات ! نعم إن الشعور الصادق في اللفظ الجميل قوامُ الشعر الصحيح ، ولـكن الشعور النفسي لن ينبجس صافياً عذباً مهيئاً للبيان ، وما أحسبه يصفو ويعذب إلا إذا نهد له الشاعر بنشاطه فجرّده من الأدران التي تمازجه ، ونفض الغبار عنـه ثم أهداه للقارىء أنشودة رائعة وأثراً كاملاً . . .

بيروت — محمد روحي فيصل

رشيد في ضحى عيدها

للأستاذ محمد محمود جلال



كدنا لا نذكر اليوم عن « رشيد » إلا إخراج الأرز طعاماً شهياً . وأنها مقر صناعته ولا نعرف لها أكثر من الترويح الذي نلقاه من جمال موقعها حين نبرم بالمصيف المتمدين المملوء بالرسميات على شاطىء الاسكندرية ، فنفزع اليها نلتمس شيئاً من التغيير وقرباً من الطبيعة في أهنأ مظاهرها

فأما نصيبها من حياتنا المعنوية فمقصور على ما نتوارثه سماعاً عن سرعة النكتة في طبيعة أهلها ، فنتنادر بشيء مما حفظنا منه في مناسبات متباعدة ، فاذا طلبت في إحدى بيئاتنا مزيداً فلست تجده إلا رواية عن مختصر مخل من كتب الجغرافيا « فهي ميناء على ملتقى النيل بالبحر الأبيض المتوسط وهي مركز من مديرية الغربية كانت محافظة إلى عهد قريب »

وهكذا غمطت « رشيد » حقها ، وغمر في قاموسنا أصلها كما ذهب الاهمال بأكثر صحفنا ، وعصفت الأنواء بمفاخرنا . كأنها لم تكن طغراء في كتاب الجهاد الحديث ، ومسرحاً أظهر الله فيه آيات الحكمة والبسالة لشعب وادي النيل . كأنها ليست هي رشيد التي حققت في سنة ١٨٠٧ ما لا نزال في أحضان التقدم والرقي مجرد أمل لوادي النيل ، وأمنيـة لأكثر أقطار الشرق

أحببت أن أرى رشيد في أول أبريل ، وكنت بالاسكندرية والمسافة بينهما تقطعها السيارة في ساعتين

تخيرت « سـيارة أجرة » أعجبني مظهرها واطمأنت نفسي الى أدب سائقها ، وسارت تقطع الطريق وقد أوصيت قائدها بالتؤدة لعلة الأمعاء التي أشكو

وقف بي السائق في الطريق عنـد « ادكو » المشرفة على بحيرتها ونزلت أمشي قليلاً على قدمي . فلما عدت أستأنف رحلتي وجدت السائق قد أعد فنجان قهوة وكوبة ماء وقدمهما إليّ في أدب ينـدر أن تراه في زملائه . شكرت له صنيعه وألححت في أن يطلب له فنجاناً آخر وسرحته ريثما يشربه في قهوة مجاورة بيد أنه لم يقبل إلا بعد مشقة

جلست إلى جوار السائق مستأنفاً رحلتي وقد ألهمت أن للرجل قسطاً من العلم ولابد من سر مؤثر في حياته وبدأت آنس به قلت : « لأي غرض تظنني أقصد إلى رشيد اليوم ؟ » قال : « لعل حضرتك محام ولديك اليوم جلسة » قلت : « لقد تركت المهنة منذ ثماني حجج وأنا اليوم فلاح مقيم بالوجه القبلي » قال : « لعلها نزهة ، فـكثير من الخواجات يأتونها في أوقات مختلفة » قلت : « ولا هذا أيضاً وليس معي رفيق ولم أر رشيد من قبل »!! قال : « لعلك تزور صاحباً » قلت : « لا أعرف بها أحداً وقد ذكرت لك أن هذه أول زيارة لها »

اكتفيت من حـدس السائق بما سمعت ، وخففت عنه عبء الفـكر فقلت : « هذا يوم عيد لرشيد — بل عيد لوادي النيل . فقد أشرقت شمس هذا اليوم منذ ١٢٨ عاماً وللمدينة غنى بشمس النصر ، وحرارة الجهـد والظفر على المعتدين حتى جلا

الأنجليز فى ظل معاهدة مع محمد على باشا عن البلاد بعد ذلك بشهور » ! !

سُرَّ السائق بما سمع وبدا لى أنه يريد أن يتكلم فلزمت الصمت قال : « إن بلاءنا منا وباسبابنا . قلت : لم وكيف كان ذلك ؟ قال : « ألا تذكر حضرتك كيف التجأ الخديو توفيق باشا لحماية الانجليز ؟ — ألم تسرق من معسكر عرابى خريطة فى التل الكبير بواسطة أحد الضباط » ؟ !

ذكرت على التو أمر الخريطة وأنى قرأت شيئاً من ذلك فى أحد المؤلفات التى كتبت عن المسألة المصرية وإذا لم تخن الذاكرة فهذا الضابط الذى يعنيه يدعى « على يوسف خنفس »

قلت : ولكن بعد ذلك ألم يكن سبيل لتصحيح الخطأ ودرء الخطر ؟ »

قال : « ألم يكن رؤساء الحكومة أغرابا بين تركى وأرمنى وروى ؟ »

تساءلت : ومن هذا الأرمنى ؟ أو كان لنا رئيس حكومة أرمنى ؟

قال : نعم . نوبار باشا ، ألم يساعد على سلخ السودان ؟ استدركت قائلاً « بل قل الوجه السودانى كما تقول الوجه البحرى والقبلى . أو تعرف للسودان قيمة ؟ ؟ »

قال : « إنه حياتنا ، ولقد عشت فيه ، ونلت الشهادة الابتدائية من كلية غوردون »

صدق ظنى فأنا بأزاء رجل متعلم ، وطاب لى أن يستمر فى حديثه وكله سمر مفيد متصل بما أعنى به

سألت السائق : « وما الذى دفع بك الى الوجه السودانى ؟ »

قال : « ولدت هناك ؛ وقد كان أبى موظفاً بمصلحة السكة الحديد . أرسل الى السودان ليدرب المبتدئين هناك من عمال التلغراف ، ولما عدنا أتممت دراستى الى شهادة الكفاءة ، وشق علىَّ أن أسعى للوظيفة وسط أمواج الساعين وذل الوساطة ، فتعلمت قيادة السيارات واشتريت هذه ، وأنا بعيشى قانع ولله شاكر »

لم أجد بداً من تحيته تحية تجزىء شيئاً من كرامته وحسن تقديره للحياة ولوطنيته . قلت : قف السيارة — وقد ظن أنى أريد استئناف السير على قدمىّ لدقائق أخرى ، فهمّ يفتح الباب

قلت : كلا . أمدد يدك انى أصافحك ، وأنت الآن فى نظرى خير منى ، وأنت إذن سائقى ورفيقى

* * *

أشرفنا على المدينة ، فسألت السائق هل يعرفها جيداً ؟ قال « نعم » فاطمأن خاطرى فنزلت وصورت مدخلها

رأيت أعلاماً منشورة ، وزينات مرفوعة ، وبشراً يغمر الوجوه . فقلت : الحمد لله إنهم يعرفون لليوم حقه . والتفت إلى رفيقى خريج « كلية غوردون » وقلت : « ألا ترى مظاهر العيد ؟ »

أجاب الرجل : « إنه اتفاق سعيد ، فقد ازينت المنازل والطرقات لعودة الحجاج من أهل رشيد ، وقد دعيت أمس لاركب سيارتى أحد أعيانها القادمين ، ولكنى وعدتك أن أوافيك بفندق وندسور . فاعتذرت مهما علا الأجر ، وأنا اليوم أعد نفسى سعيداً »

قلت : بل أنا يابنىّ ، فقد وجدت فيك من يحتفل معى بهذا العيد على معرفة ! » وقلت : لا يزال فى الدنيا من يرخص المادة فى سبيل الوفاء ، وإذن ماتزال الدنيا بخير

رشيد بلد ظريف جذاب . إذا نظرت إلى التقاء النيل عنده بالبحر الأبيض المتوسط ، ذكرت على التوكيف انسابت مدنية وادى النيل القديمة إلى أوربا ، وعرفت كيف سارت تعاريج الأمواج الحلوة الهادئة بين الشاطئين الهادئين ، فكانت أشبه بالسطور يحملها الأثير بفعل الاختراع — فنقلت فى أقدم العصور التشريع المصرى إلى (أثينا) فأضفت على تاريخها مفخرة التقنين وسن الشرائع

أمواج النيل الهادئة ، بالاضافة الى أمواج البحر الصاخبة الهائلة ، كذلك الخلق الرصين المتين يثابر متئداً فيتغلب على صخب الجبروت ، والهيولى الضخمة المخيفة لكتائب الغضب والغزو — وقد شهد وادى النيل مصارع أمم كبيرة فأفنى قواها أو مثلها ففنيت فى شعبه

مررنا بالمبانى الحديثة فقلت خلوا بينى وبينها ، أرونى المبانى القديمة ، أسمعونى الشهود العدول ، دعوها تحدثنى عما شهدت وتطلعنى على ما خفى من تفاصيل المفاخر

رأيت المنازل القديمة ، ووقفت بربوعها أسائلها وتجيبنى . أصغى إلى (طيقانها) الصغيرة ، فأسمع حديث الاباء والشمم ، ووقفت بأبوابها أذكر القرى والكرم

التقيت بأحد أبناء رشيد الكرام الأستاذ فؤاد نور المحامى فحمدت رفقته وحمدت السرى فى ظله ، زرنا المنازل الأثرية فهذا بيت (الأماصيلى) كان يملكه حاجب المحكمة الأهلية فابتاعته مصلحة الآثار ولكنه مقفل فلا دليل يقف ببابه للمسترشدين ، ولا نشرة توزع بما يجب للبناية الأثرية من بيانات ، ولا « كارت بوستال » يباع — حاوياً صوره الداخلية

والبيت من داخله تحفة فنية وفيه متعة وشغل للبصر والبصيرة ، بنى فى ٢٨ شوال سنة ١٢٢٣ هجرية وقل أن تجد من يعنى بتأريخ البناء إلا فى السنوات الأخيرة

وأعجب ما ترى فيه « مقصورات » شبيهة بالألواح التى نراها اليوم بالمسارح أعدت لجلوس السيدات ليشهدن مجالس الغناء وتسمى « الأغانى » أضافة إلى الغرض منها

وقفت إذن : أن هذا البيت قد شهد موقعة النصر وأنه شاهد أمين عليها ، وقفت به طويلاً وقلت : ما يؤلمنى أن أكون وحيداً ولا أن يرافقنى رهط قليل مادمنا نقوم بما نعلم من واجب ، فغداً يزور رشيد آلاف وغداً يكون الاحتفال عاماً ، ولا ضير أن نبدأ قلة وقد نعلم أن (واشنجتون) عد فى وقت مجنوناً ، وأنه لم يخل من تآمر حرسه عليه ، وهو اليوم ، وفكرته اليوم متجه الأنظار للأمريكان جميعاً

ليس فى رشيد فندق لائق . وقد أعد يونانى مطعماً منذ سنوات قليلة فقاطعه أهل البلد حتى لم يجد مناصاً من اغلاقه وهجرة البلد

كل دار أحق بالأهل إلا فى خبيث من المذاهب رجس

ولكن هذا الميدان الذى خلا أليس من أهل البلد من يملؤه ؟ أولئك الذين كتب عنهم الجنرال ستيورات الى القائد فرزيه فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ يقول : « إن الأهالى لا يعبأون بالمصائب رغم ما أحدثنا بالمدينة من تخريب حتى بلغ ما أطلقناه من القنابل من المدافع البعيدة المرمى وحدها ٣٠٠ قذيفة »

على أحفاد أولئك الكرام أن يحتفلوا بذكرى أجدادهم وبمجد بلدهم . وعليهم أن يسدوا كل ثغرة ، ولعلنا نقتبس الرشد عما قريب عن رشيد

الشيخ عطا

محمد محمود جلال
المحامى

فلسفة موسى بن ميمون

ومصنف « دلالة الحائرين » (١)

بقلم اسرائيل ولفنسون

أستاذ اللغات السامية بدار العلوم



عن النوقيل ليترير

إذا كانت مدونات موسى ابن ميمون التشريعية قد صنفت لابناء الثقافات اليهودية قبل كل شىء ، وإذا كانت البحوث التى وردت فيها لا تتجاوز حدود الدين وأدب الدين والتشريع الاسرائيلى فان كتاب دلالة الحائرين يشغل ناحية أخرى من التفكير الانسانى ، هى الناحية الفلسفية والمنطقية ، أو الناحية الانسانية العامة التى كانت تشغل بال المفكرين ورجال الفلسفة فى ذلك العهد

وقد اعتمد موسى بن ميمون فى أثناء تأليف كتابه « دلالة الحائرين » على المصادر العبرية التى كان له بها إلمام يندر أن يكون فى شخص آخر من أحبار اليهود فى القرون الوسطى ، كما كانت له دراية تامة بمؤلفات اليهود باللغة العربية ، ومع أنه لم يسرد أسماء المؤلفين إلا فى أحوال نادرة فان نظرياتهم تتكرر فى كثير من فصوله فى كتابه « دلالة الحائرين » إذ يسرد آراء سعديا الفيومى (٢) وبحيا (٣) وسليمان بن جبيرول (٤) ويهودا هالوى (٥) وابرهيم بن

(١) فصل من كتاب عن موسى بن ميمون تحت الطبع

(٢) راجع كتاب دلالة الحائرين ج ١ فصل ٦٥ ، ج ٢ فصل ٦٣ ، ج ٣ فصل ١٧ (٣) ج ١ فصل ٥٩ ، ج ٣ فصل ٨

(٤) ج ٢ فصل ٤٢ (٥) ج ١ فصل ٥٢

حيا[١] وابرهيم بن داود[٢] وابرهيم بن عزرا[٣]

وكذلك كانت له دراية بآداب اليهود القرائين[٤]

أما الفلسفة اليونانية فكان يعرفها من التراجم العربية شأن غيره من الفلاسفة فى البلدان الاسلامية وهو متأثر قبل كل شىء بارسطاطاليس الذى يراه رئيس الفلاسفة ، يجله إجلالاً عظيما إذ يقول : « وكل ما قال ارسطاطاليس فى جميع الوجود الذى من لدن فلك القمر الى مركز الأرض هو صحيح بلا ريب ، ولا يعدل عنه إلا من لم يفهمه ، أو من تقدمت له آراء يريد الذبّ عنها ، أو تقوده تلك الآراء لانكار أمر مشاهد . . . »[٥]

وكان قد درس كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس من ترجمة إسحق بن حنين كما علم نظرياته من شروح يونانيـة مترجمة الى العربية مثل اسكندر الأفروديسى[٦] وتامستيدس[٧] ويحيى النحوى(Gohannes Philapone)[٨]

وكذلك وصلت اليه نظريات ارسطاطاليس بوســاطة المصنفات العربية مثل الغزالى[٩] وابن باجه أبو بكر بن الصائغ[١٠] وابن الطفيل[١١] والفارابى[١٢] وآراء المتكلمين[١٣] ، وكذلك أدمج فى « دلالة الحائرين » بعض النظريات لبطليموس[١٤] وجلينوس[١٥] اليونانيين

وكذلك ورد فى دلالة الحائرين بحث فى منزلة المعـتزلة والأشعرية[١٦] ممـا يدل على أنه درس المذاهب الاسلامية دراسة وافية

(١) ج ٢ فصل ٤٥ (٢) ج ١ فصل ٥٢ ، ج ٣ فصل ٣٣
(٣) ج ٣ فصل ٢٠ (٤) ج ١ فصل ٧١
(٥) جـ ٢ فصل ٢٢ (٦) جـ ١ فصل ٣١ ، جـ ٢ فصل ٣ وفصل ١٥ وفصل ٢٢ (٧) جـ١ فصل ٧١ (٨) جـ ١ فصل ٧١
(٩) راجع هامش الترجمة الفرنسـية لدلالة الحائرين للعالم فونك le Guide des Egarés de Maimonides publié par S. Munk Paris 1856 — 1866 جـ١ ص ٢٠٨ ، ٢٤٥ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢
(١٠) جـ ١ ص ٢٧٨ ، ٤٣٤ ، جـ ٢ ص ٨٢ ، ١٨٥ ، ٢٨٦ ، جـ ٣ ص ٢٢٢ ، ٤٣٨ (١١) جـ ١ ص ١٢ ، ٣٥٨
(١٢) جـ ١ ص ١٩٣ — ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٣٨ ، جـ ٢ ص ١٢٨ ، ١٣٩ ، ٢٥٩ ، جـ ٣ ص ١٣٩ (١٣) جـ ١ ص ٥ ، ١٨٥ ، ٣١٣ — ٣١٦ ، ٣٣٦ — ٣٥٢ ، ٣٧٥ — ٤٥٩ جـ ٢ ص ١١٨ ، ١٢٨ ، جـ ٣ ص ٥٨ — ٥٩ (١٤) جـ ١ فصل ٧٢
جـ ٢ فصل ١٣ جـ ٣ فصل ١٢ (١٥) جـ ١ فصل ٧٢ جـ ٢ فصل ١٣ جـ ٣ فصل ١٢ (١٦) جـ ١ فصل ٧١

وكان السبب المباشر فى نشر كتابه دلالة الحائرين الحاح تلميذه يوسف بن عقنين عليه ، ويقول موسى بن ميمون فى مقدمته الى تلميذه : أيها التلميذ العزيز ، لما مثلت لدىّ وقصدت الىّ عظم شأنك عندى لشدة حرصك على الطلب ، ولما رأيت فى أشعارك التى وصلتني وأنت مقيم بالاسكندرية من شدة الاشتياق للأمور النظرية ، وقبل أن أمتحن تصورك قلت لعل شوقه أقوى من إدراكه ، فلما قرأت علىّ ما قرأته من علم الهيئة وما تقدم لك مما لابد منه ، زدت بك غبطة لجودة ذهنك ، وسرعة تصورك ، ورأيت شوقك للتعليم عظيما فتركتك للارتياض فيه لعلمى بمآلك ولما قرأت علىّ ما قد قرأته من صناعة المنطق تعلقت آمالى بك ، ورأيتك أهلاً لأن تكشف لك أسرار الكتب النبوية حتى تطلع منها على ما ينبغى أن يطلع عليه الكاملون ، فأردتُ أن ألوّح لك تلويحات وأشير لك باشارات ، فرأيتك تطلب مني الازدياد وأن أبين لك أشياء من الأمور الالهية وأن أخبرك بمقاصد المتكلمين وطرائقهم... وآمرك أن تأخذ الأشياء على ترتيب قصداً منى أن يصح لك الحق بطرقه لا أن يقع اليقين بالعرض ؛ ولم أمتنع طول اجتماعك بى إذا ما ذكر نص من نصوص الحكماء فيه تنبيه على معنى غريب من تبيان ذلك لك ، فلما قدر الله بالافتراق ، وتوجهت الى حيث توجهت أثارت منى تلك الاجتماعات عزيمة كانت فترت وحركتنى غيبتك لوضع هذه المقالة التى وضعتها لك ولأمثالك ، وقليل ماهم ، وجعلتها فصولاً منثورة وكل ما أكتب لك منها يصلك أولاً فأولاً ودمت وأنت سالم . . .[١]

ولم يقصد موسى بمصنفه هذا الجمهور أو المبتدئين بالنظر ، بل كان نصب أعينه « جماعة الذين أخذوا أنفسهم بالكمال الانسانى وإزالة هذه الأوهام السابقة من سن الطفولية »[٢] أو إنه « ما ألف الكتاب إلا لمن تفلسف وعرف ما قد بان من أمر النفس وجميع قواها . . . . . »[٣] أو « لمن هو كامل فى خلقه ودينه ونظر فى علوم الفلسفة وعلم معانيها . . . . . »[٤]

أما عن غرض تأليف دلالة الحائرين فيقول المؤلف : ما كان الغرض نقل كتب الفلاسفة . . .[٥] وما كان قصدى أن أؤلف

(١) جـ ١ ص ٢ (٢) جـ ١ فصل ٦
(٣) جـ ١ فصل ٦٨ (٤) جـ ١ صدر الجزء الأول ص ٣
(٥) جـ ٢ صدر الجزء الثانى ص ٤

شيئاً فى علم الطبيعة ، أو أن ألخص معانى العالم الآلهى على بعض المذاهب ، أو أبرهن علىَ ما يبرهن منها ، أو أن أقتضب هيئة الأفلاك ، ولا أن أخبر بعددها إذ الكتب المؤلفة فى جميع ذلك كافية ، وإن لم تكن كافية فى غرض من الأغراض فليس الذى أقوله أنا فى ذلك الغرض أحسن من كل ما قيل ، وإنما كان الغرض بهذه المقالة أن أبيّن مشكلة الشريعة وأظهر حقائق .(١)

ويقع الكتاب فى ثلاثة أجزاء ، يشتمل كل جزء على فصول أو موضوعات ، وعلى كبر حجم الكتاب وتنوع موضوعاته فان ما ورد فيه من النظريات يتدرج تدرجاً منطقياً محكماً من قضية إلى أخرى ، فكأن جميعها سلسلة واحدة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً

والهدف الأسمى الذى يرمى إليه موسى بن ميمون هو أن يأتى أشعة من أنوار الفلسفة والمنطق والعقل على الأيمان والشعور « العقل الفائض علينا هو الصلة بيننا وبين الله تعالى . . . » (٢) وهو يقصد التوفيق بين الدين والفلسفة « الحكمة المقولة باطلاق فى كل موضوع هى الغاية هى إدراكه تعالى » (٣) ، كما يقصد التوفيق بين موسى كليم الله وأرسطاطاليس شيخ الفلاسفة حتى ينظر العالم الى الدين عن طريق الفلسفة ، وحتى يطلب الحق والعرفان لا فى أفق الدين وحده ، بل فى ميدان العقل والمنطق أيضاً ، وقد رفع بذلك الفلسفة والفلاسفة إلى مصفّ واحد مع الدين وكبار مفكرى الدين

ويبحث الجزء الأول من دلالة الحائرين فى ماهية الله وكيفية إدراكه وتوحيده ، كما يدخلنا فى الكتاب المقدس عن طريق الفلسفة والمنطق ، ويفتح الكتاب بمحاربة عنيفة كل ما يقصد من الأوصاف المادية المنسوبة لله ، فيشرح الآية « نصنع إنساناً على صورتنا وشبهنا » (٤) إن الناس قد ظنوا أن لفظ صورة فى اللسان العبرى يدل على شكل الشىء وتخطيطه فيؤدى ذلك إلى التجسيم المحض ، ورأوا أنهم إن فارقوا هذا الاعتقاد كذبوا النص . . . وأما صورة فتقع على الصورة الطبيعية ، أعنى على المعنى الذى يجوهر الشىء بما هو وهو حقيقته من حيث هو ذلك الموجود المعنوى ، هو الذى عنه يكون الادراك الأنسانى . . فيكون المراد من الصورة الصورة النوعية التى هى الادراك العقلى لا الشكل والتخطيط . . . (١)

وإدراك الآله عنده على الطريقة السلبية لا الايجابية ، فانه يقول : « اعلم أن وصف الله عز وجل بالسوالب هو الوصف الصحيح الذى لا يلحقه شىء من التسامح ، ولا فيه نقص فى حق الله تعالى جملة ولا على حال ، أما وصفه بالايجابيات ففيه من الشرك والنقص . . . » (٢)

ويبحث الجزء الثانى فى مشاكل وجود الله وتوحيده وروحانيته وما يرى الفلاسفة فى الكون إذا كان قديماً أو « محدثاً » ، ومع أن موسى بن ميمون من أشد أنصار أرسطاطاليس ففى مسألة قدم الكون يحاربه محاربة عنيفة ، لأن الأخذ بقدم الكون ينفى ما ورد فى التوراة من أن الكون محدث ، ويقول موسى بن ميمون بعد بحث طويل فى هذه المشكلة إن كل ما ذكره أرسطاطاليس وأتباعه من الاستدلال على قدم الكون ليس له براهين قطعية ، بل لها حجج تلحقها الشكوك العظيمة . . . (٣)

ثم يبحث فى النبوة وماهيتها ودرجاتها وتعريفها عند رجال الدين من الملل المختلفة وعند أصحاب المدارس من الفلاسفة

ويشغل البحث فى النبوة أغلب فصول الجزء الثانى وهو من أرق ما وصل اليه التفكير اليهودى الفلسفى فى القرون الوسطى

أما الجزء الثالث فيتم موسى فى فصوله السبعة الأولى بحثه عن النبوة بشرحه رؤيا النبى حزقيال الذى ورد فى الفصل الأول والثالث من سفره من أسفار العهد القديم ، وكل ما ورد فيها من الاصطلاحات العويصة والمعانى الغامضة

ثم ينتقل الى البحث فى الشر ، وما يحل من المصائب بالعالم وهل الانسان هو الذى يكون مسئولاً عما يقع من الكوارث على المخلوقين أم الله سبحانه وتعالى ، ثم ينتقل الى مشكلة العناية الآلهية بالكون والمخلوقات ، وما يقول الفلاسفة من اليونان والمسلمين واليهود فيها

ثم يتعرض لأمور دينية فى الشريعة التى جاءت لصلاح النفس وصلاح البدن ، كما يشرح واجبات وعبادات وردت فى التوراة على الطريقة الفلسفية

(١) جـ ٣ فصل ٢ ص ١١ (٢) جـ ٣ فصل ٥٢ ص ١٣٠
(٣) جـ ٣ فصل ٥٤ ١٣٤ (٤) سفر التكوين الفصل الأول آية ٢٦

(١) جـ ١ فصل ١ ص ١٢ (٢) جـ ١ فصل ٥٨ ص ٧٠
(٣) جـ ٢ فصل ١٦ ص ٣٤

وقد ورد في هـذا الجزء معـلومات كثيرة عن الأخلاق والعادات عند الصابئة وعبدة الأصنام من الآراميين من أهل حران بجزيرة العراق كما ذكر بعض كتبهم

وكذلك ورد الذكر لـكتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ولم يتنبه العلماء المستشرقون إلى هذا الـكتاب إلا بعد أن قرأوا ما كتبه عنه موسى بن ميمون

وفي الفصول الأربعة الأخـيرة يبحث المؤلف في العناية بالعبادات والواجبات الدينية التي هي الغاية المثلى لحياة الانسان حتى يدرك الحقائق الالـهية ، وحتى يتقرب إلى الحق والعدل والحـكمة وهي ألفاظ يعرفها موسى تعريفاً منطقياً فلسفياً ، وهذه الفصول من أدق ما وضع في مصنفه دلالة الحائرين وأكملها

اسرائيل ولفنسوه
أستاذ اللغات السامية بدار العلوم

١٠ - قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي
وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صـــلة حديثه

وصل القائت : ترك بستور مدبغة أبيه وذهب إلى باريس . فتلق على الـكيميائي العظيم « دوماس » . وبعدئذ أتم أبحاثه في حامض الدردى . وبينا هو كذلك اكتشف « كنيارد دي لاتور » أن الخمائر بالبيرة المختمرة تتكاثر فتحيل الشعير بذلك الى كحول . وتعين بســتور أستاذاً بجامعة « ليل » وتزوج ابنة عميدها فسهرت الى جانبــه . وأجرى كثيراً من التجارب الناجحة وأخفق فيها

وتعين « بستور » عميداً لـكلية العلوم بجامعة « ليل » Lille ، فسكن واستقر في « شارع الأزهار » . وهنا اتصل عفواً ولأول مرة بالمـكروبات . وفي هـذه المدينة الأصيلة ، مدينة القطّرين للخمور ، مدينـــة زرّاع البنجر وتجار الآلات الزراعية ، قام « بستور » بحملة قوية ، بعضها علميّ ، وبعضها قصصي روائي ، وبعضها ديني ، وبعضها سياسيّ ، ليضع المـكروب في موضعه اللائق من اهتمام الناس ورعايتهم . نعم في هذه المدينة ذات الخطر اليسير والجمال القليل ، في هذه المدينة التي لم تشتهر قط بالعلم ، أثار بستور زوبعة هائلة نالت سفائن العلم فظلت تؤرجحها ثلاثين عاماً . أبان بستور للدنيا خطر المـكروب فأوجست منه خيفة ، وخلق لنفسه في سبيل ذلك أعداء ألدّاء ، وخلق لها أحباباً خُـلصاء ، وملأ اسمُـه صفحات الجرائد الأولى . وطلبه خصوم للمبارزة . وضحك الجمهور باديء بدء من مكروباته الغالية ، وقصف بالنكات عليها ، بينما كانت كشوفه تُـنجي حياة العدد العديد من النُّـفَـساء . واختصاراً في هذه المدينة المتواضعة ، ومن فوق أرضها شال الشّـولة الأولى إلى فردوس الخالدين

جاء بستور إلى مدينة « استراسـبورج » فحاورته الحقائق فيها واختلطت عليه ، ثم جاء إلى مدينة « ليل » فجاءه المجد يسعى ، وذلك باسدائه المعونة إلى ... خمّار !

جاء إلى « ليل » فقال له الرجال ذوو المال ، وأرباب النفوذ من ذوى الأعمال : « إن العلم جميل في أرستقراطيته ، ولـكن الذي نريده ، والذي تريده هذه المدينة الناهضة ، هو التعاون بين علمك وصـناعتنا . نريد أن نعلم هل يزيد العلم في مكاسبنا . زدْ يا هذا في الحقل مقدار السكر في بَنْجرنا ، وزد في المصنع مقدار الـكحول المتقطّر من سكرنا ، نُدِرّ عليك الخيرات ، ونتولَّ معاملك بالرعايات »

سمع بستور ما سمع في أدب واحتشام ، ثم أخذ يريهم كيف يستجيب العلم إذا دعاه الداعي . فانه لم يكن رجل علم فحسب ، بل كان رجلاً خبيراً بأمور دنياه وسنن العيش فيها . تصوّرْ جماعةً من أرباب الأعمال يأتون « نيوتن » Newton ، فيسألونه ماذا تستفيد مصانعهم من قوانين حركته ، إذن لرفع يديه إلى السماء واستعاذ منهم بالله ، ولذهب من بعد ذلك إلى انجيله يقرأ كتاب دنيال ويدرس مافيه من نبوءات . ولو أنهم جاءوا فرادى Faraday إذن لآثر صناعتـه الأولى ، وعاد إلى تجليد الـكتب وحزم الأوراق . ولـكن بسـتور كان من أبناء القرن التاسع عشر ، يعرف حق المعرفة أن العلم لابد أن يكسب خبزَ يومه إذا هو أراد الحياة . لذلك بدأ يحاضر أهل البلد فيه ، ويدبّر لهم المحاضرات الشيقة ليخطب ودهم ويكسب عطفهم

وفي ذات مساء كان يخطب في جمع من أرباب المصانع وأزواجهم ،

فصاح فيهم : « مَن مِن أبنائكم لا ينهض للعلم توّا ، مَن مِن أولادكم لا يتحرق للعلم تحرقاً ، إذا أنا وضعت فى يده بطاطسة ، وقلت له : إنك تستطيع أن تخرج من هذه البطاطسة سكراً ، وتستطيع أن تخرج من هذا السكر كحولاً ، وتستطيع أن تخرج من هذا الكحول خلًّا وأثيراً ؟ » . ومضت على هذا أيام ، فجاءه أحد الذين حضروا خطابه ، وكان رجلاً يدعى « بيجو » ، وكانت صناعته تقطير الكحول من سكر البنجر المختمر ؛ جاء يتوسّل للأستاذ : « سيدى ، أنا فى حَرَج من صناعتى ، فاختمار البنجر لا يتم على وجهه ، وخسارتى تبلغ ألوف الفرنكات فى اليوم ، فبودّى لو جئت مصنعى ، ونظرت فى معونتى ، فأنقذتنى من خيبتى »

وكان ابن « بيجو » طالباً فى قسم العلوم بالكلية ، فأسرع « بستور » إلى معونة أبيه . فذهب إلى مصنع التقطير ، وأخذ يتشمّم فى الأحواض المريضة ، تلك الأحواض التى تأبى أن تخرج من البنجر كحولا ؛ وانكبّ عليها ، واغترف منها ، فكان شيئاً مختلطاً أدكن هلاميّا ، فوضعه فى قارورات وحمله الى معمله . ولم يفته أن يغترف كذلك من لُبابة البنجر من الأحواض الصحيحة السليمة المختمرة الراغية بما تنتج من كحول كثير .

ولم يكن « بستور » يدرى كيف السبيل لمعونة « بيجو » ، لأنه لم يكن يدرى كيف يختمر السكر فيستحيل كحولا ، ولم يكن فى الدنيا كلها كيمياوى يعرف عن ذلك شيئاً . عاد إلى معمله ، وأخذ يحك رأسه وهو يفكر ، ثم استقر رأيه على أن يمتحن ما اغترفه من الأحواض السليمة أولاً ، فوضع قطرة منه تحت مجهره ، ولعله كان يحسب أنه سيرى بلورات كتلك التى طال تحديقه اليها زماناً مضى ، ولكنه وجد هذه القطرة مليئة بكُرَيَّات أصغر كثيراً من أية بلورة رآها . وكانت هذه الكريات صفراء ، وازدحم جوفها بجسيمات كثيرة ترقص كأنما عن طرب ، وتمتم لنفسه : « ليت شعرى ما هذه الكُرَيَّات ! »

وأسعفته الذاكرة فصاح ثانية لنفسه : « يالَلنسيان ! بالطبع هى الخمائر التى تجدها دائماً فى كل محلول به سكر يختمر ليصير كحولاً »

وأعاد النظر فأبصر هذه الكريات فُرادى ، وأبصر طائفة أخرى منها متعنقدة ، وأبصر أخرى متقاطرة . ثم حدّق ندَهِش لرؤية بعضها قد تنبّتت جوانبُه كما تتنبّت البذور الصغيرة ، فقال : « لقد صدق كنيارد ، فهذه الخمائر حية . ولا بد أنها هى التى تصيّر السكر كحولا . ولكن ما فائدة بيجو من هذا ! ؟ وما الذى أصاب الأحواض المريضة فتعطلّت ؟ » واختطف القارورة التى بها ما كان اغترفه من حوض مريض ، وحدّق فيه بمنظار مكبّر ، وشمّه ، وذاقه ، وغمس فيه ورقة زرقاء فاحمرت [1] ... ثم وضع قطرة منه تحت مكرسكوبه ونظر فيها

« عجباً ! أين ذهبت الخمائر ، فليس فى هذه القطرة منها شئ ؟ ما هذا ؟ ما معناه ؟ »

وتناول القارورة مرة أخرى ، وأخذ ينظر ويفكر ، ولا ترى عينه فيها جديداً . وبينا هو يَرْكَب فى التعليل الخيال ، ويَسُوم ذهنَه طلبَ المحال ، إذا بالسائل فى القارورة يتراءى له فى صورة جديدة تبعث فيه أملاً جديداً . « ماذا أرى ؟ بقعاً صغيرة دكناء لاصقة بجدار القارورة . وهذه بقع أخرى مثلها تطفو على سطح سائلها المريض — إذن صبراً ! ... لا . إنها لا توجد فى القارورة ذات السائل الصحيح حيث الخمائر والكحول » .

ثم غاص فى القارورة المريضة ، وبشيء من العناء استطاع أن يخرج شيئا من تلك البقع فوضعها فى ماء نقى ، ثم علاه بمجهره

هذا يومُ « بستور » جاء أخيراً !

لم يجد فى هذا السائل كرَيّات الخمائر . لا ، ولكنه وجد شيئاً جديداً ، شيئاً لم يره من قبل ، أحياء صغيرة كثيرة شديدة الزحام ، شكلها كالعصىّ ، بعضها قائم وحده ، وبعضها متقاطر كالابل ، وكلها يرقص فى ارتعاد غريب لا هَدْأة له . كانت الخمائر فى عينه صغيرة فجاءت هذه تصاغرها فتَصْغُرُها كثيراً ، فلم يَعْدُ طولها جزءاً من ألف من المليمتر

وفى هذه الليلة أرِق « بستور » طويلا ، وتقلّب فى مضجعه طويلاً . وفى الصباح كنت تراه يُجرجر ساقيه الغليظتين القصيرتين إلى مصنع « بيجو » ، وبنظارته المنحرفة على بصره القصير ، مال على حافة حوض مريض لم يكن أتاه من قبل ، وجرف من قاعه بعض الذى فيه . ثم مال على أحواض مريضة غيره . ونسى « بيجو » ، ونسى أنه إنما بدأ هذا العمل لمعونة « بيجو » . اختفى « بيجو » من فكره ، واختفى كل شيء فى الوجود إلا نفسه الشمّامة البحاثة ، وإلا تلك العصىّ الراقصة الغريبة التى وجد الآلاف المؤلّفة منها فى تلك البقع الكدماء الصغيرة ...

(١) هى ورقة عباد الشمس واحمرارها دليل وجود حامض بالسائل
المترجم

ولما جاء الليل أخذت زوجه تنتظره لينام ، فلما يئست ذهبت إلى الفراش وحدها ، وتركته يَنْصب الجهاز تلو الجهاز حتى ازدحم معمله بها . ووجد أن جميع السوائل بالأحواض المريضة تحتوى حامضاً عرف أنه حامض اللبن[1] ، وأنه ليس بها كحول . ولم يلبث أن خطر له خاطر غَمَر فكرَه كله ، وملأ رأسه أجمع : « إن هذه العصى بالسوائل المريضة حيّة ، وهى هى التى تصنع حامض اللبن ؛ وهى ربما تشتجر مع الخمائر فى قتال شديد فتقضى عليها فلا تنتج كحولاً . إن هذه العصى تصنع حامض اللبن كما تصنع هذه الخمائر الكحول » . وهرول إلى السلم ، فصعد إلى مدام « بستور » يخبرها بالذى وجد — مدام « بستور » التى لم تعرف من التخمّر والخمائر شيئاً ، مدام « بستور » التى لم تفهم من علمه إلا قليلاً ، إلا أنها فهمت نفسه المتحمسة وروحه الوثابة ، فأعانته بعطفها وحبها كثيراً

بالطبع لم يكن الذى ارتآه إلا ظنّاً ، ولكن قام فى نفسه شىء يوسوس له أن هذا الظن حق لا ريبة فيه . لقد تظنّن « بستور » مئات المرات فيما وقع عليه بصره القصير من مئات الظواهر فى الطبيعة التى حوله . وكانت ظنوناً خاطئة . ولكنه إذ وقع هذه المرة على ظن صادق ، إذ خال أنه أصاب تفسيراً لظاهرة التخمر التى أشكلت على القرون من قبله ، أخذ يمتحن هذا الظن ، ويفحص هذا الخال ، ويقلّبه ، ويداوره ، ويتَقرّى الحقيقة فيه حتى وصل الى كنهها

وبينا ازدحمت فى رأسه الخطط الكثيرة لتقرّى كنه هذه الحقيقة ، لم يفته أن يُعين أرباب العمل على مصاعبهم ، ولا أهل الحكم إذا دعوه الى نصيحة ، ولا المزارعين إذا جاءوه ، ولا الطلبة إذ طلبوه . وحوّل جزءاً من معمله لاختبار الأسمدة الكثيرة التى كانت تأتيه . وهرع إلى باريس يدبّر لانتخابه عضواً فى أكاديمية العلوم فما أفلح . ورحل بتلاميذه إلى معامل الجعة فى « ڤالنسين » Valenciennes وإلى مسابك الحديد فى بلجيكا . وفيما هو فى هذا ، تراءى له يوماً أنه اهتدى إلى الطريقة السويّة التى يثبت بها أن هذه العصىّ القصيرة الصغيرة تحيا حياة الخلائق ، وأنها على صغرها ، وعلى قصرها ، وعلى حقارتها ، تفعل فعل العمالقة — تفعل ما لا يستطيعه العمالقة : تحيل السكر إلى حامض اللبن حدّث « بستور » نفسه قال : « لا يمكننى أن أدرس هذه العصىّ فى عصير البنجر العكِر وفيه ما فيه من أخلاط عدّة . لابد لى من عصير رائق أتتبّع فيه ما تصنع هذه العصى . لابد لى من ابتداع مرق صافٍ به غذاء طيب خاصٍ لها ، أضعها فيه ، ثم أرقبها لأرى هل تتكاثر ، هل تتوالد ، هل أجد فى هذا المرق بعد حين مكان العصا الواحدة عصيّاً راقصة كثيرة ؟ »

ووضع شيئاً من تلك البقع الكدماء التى كانت بالحياض المريضة فى محلول من سكر نقى ، فوجد أن العصىّ لا تتكاثر فيها ، فقال : « إنها تريد غذاء أمرأ من هذا » . فجرّب يطلب الغذاء المرىء فخاب . ثم جرّب وخاب . وأخيراً صنع لها مرقاً غريباً بأن أخذ شيئاً من خميرة جافة ، فأغلاه بالماء ثم صفاه ، وأخذ مرقه الرائق فأضاف له شيئاً من كربونات الكلسيوم ليضيّع ما قد يحدث فيه من حموضة . وأتى بإبرة فغمسها بالبقع الدكناء بالحياض المريضة ، وحمل ما علق بطرفها الرفيع من العصىّ الصغيرة إلى مرقه ودافها فيه . ثم وضعه فى قارورة وضعها فى فرن دافىء للتفريخ ذى درجة حرارة ثابتة ، وأخذ ينتظر فى قلق واضطراب . إن لعنة هذا البحث ، بحثِ المكروب ، يجدها الباحث دائماً فى هذه الخيبات المتوالية الكثيرة التى تعوّق النجاح طويلاً

وذهب فأمضى رُجَمات ، وألقى محاضرات ، وعاد إلى قارورته ينظر اليها وهى فى مَدْفئها . ومضى مرة أخرى فألفى فلاحين جاءوا يستنصحونه فى محاصيلهم وأسمدتهم فنصحهم بالذى ارتآه . وجاءت أوقات الطعام فابتلع منه ابتلاعاً ولم يَعِ مما أكل شيئاً . وعاد فنظر إلى قارورته واصطبر . وذهب إلى سريره جاهلاً بالذىّ يجرى فى تلك القارورة ، وليس من اليسير النومُ فى مثل هذه الجهالة . . .

وجاء الصباح ولم يظهر على مرق القارورة تغيّر . وجاء الظهر ، ومضى أكثر النهار ، فأحس رجليه تثقلان من الخيبة مرة أخرى . وجاء المساء وتمتم لنفسه : « يظهر أن كل تلك المحاليل الرائقة لن تأذن لهذه العصىّ اللعينة بالتزايد فيها . ومع هذا فلأنظرْ مرة أخرى . . . ! »

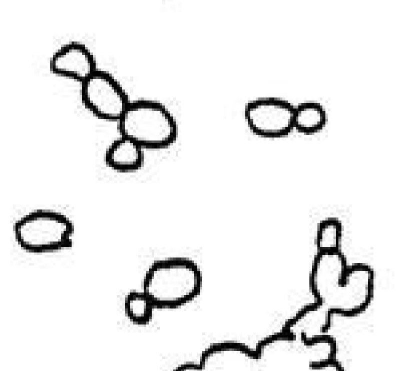
وكان فى معمله مصباح واحد من الغاز يضيئه ، وقع بين الأجهزة الكثيرة فألقى على الحوائط خيالات كبيرة مروّعة . فالى هذا المصباح رفع بستور قارورته ، ثم همس يقول : « لاشك أن شيئاً قد تغيّر فى هذا المحلول ، فانى أرى فُقّاعات صغيرة من غاز

(١) هو نفس الحامض الذى باللبن المختمر المسمى بالزبادى

تصعد متقاطرة متحاذية من تلك الجسيمات الدكناء التي لقّحتُ المحلول بها . وقد زاد مقدار هذه الجسيمات عما كان بالأمس ، وكلها تُخرج هذه الفقاعات » . وعندئذ أغمض بستور عينيه ، وأصمّ أذنيه ، وعقد لسانه عن الدنيا ومن فيها . وبقي في غيبوبة عند مِحضَنه (1) الصغير . ومضت ساعات تتلو ساعات ولعله لم يحس بها . ورفع قارورته برفق وحنان ، وحرّكها في الضوء بلطف وئيد ، فصعد من قاعها شيء كالغمام الاقتم دار صاعداً كاللولب ، وخرج منه غاز كثير . والآن فالى المجهر . . .

قطر قطرةً من السائل تحت مكرسكوبه . يا لشياطين الأرض وملائكة السماء ! إنها مليئة تعج بالملايين من تلك العصيّ الراقصة . وهمس لنفسه في لهفة : « إنها تتكاثر ! إنها حيّة ! » . ثم صاح يجيب زوجه : « نعم ، نعم ، سأصعد بعد قليل » . وكانت تدعوه من علٍ إلى لقمة ، وكانت تدعوه إلى نومة . ومضت ساعات وهو باقٍ تحت في معمله

وفي الأيام التي تلت أعاد بستور التجربة ، فوضع قطرة تزخر بتلك العصيّ في قارورة جديدة بها مرق من مرق الخمير رائق جديد ليس به عصا واحدة ، وفي كل مرة امتلأ المرق بالبلايين من تلك العصيّ ، وفي كل مرة تكون حامض اللبن فيه . ثم صرخ « بستور » بأعلى صوته يخبر الدنيا ، فلم يكن بالرجل الصبور . وأخبر المسيو « بيجو » أن الذي أمرض أحواضه هي هذه العصيّ الحيّة : « يامسيو بيجو ، حُلْ بين هذه العصيّ وبين حياض بنجرك ، تحصلْ فيها دائماً على الكحول الكثير » وأخبر طلبته بكشفه الكبير ، بأن هذه الخلائق البالغة الصغر تستطيع تخريج حامض اللبن من السكر ، وقال لهم إن هذا الشيء لم يستطعه رجل ولن يستطيعه . وكتب بالخبر إلى أستاذه القديم « دوماس » ، وإلى جميع أصدقائه . وحاضر فيه للجمعية العلمية بمدينة « ليل » ، وكتب مقالاً فيه وبعثه إلى أكاديمية العلوم بباريس



كريات الخمائر الحية مكبرة ٦٠٠ مرة

ليس في الامكان اليوم أن نؤكد أن « بيجو » استطاع أن يمنع دخول هذه العصيّ إلى سكره المختمر ، فهذا ليس بالأمر اليسير . ولكن « بستور » لم يحفل بذلك ، فكل الذي احتفل له كشفه الحقيقة الآتية : « أن التخمر مرجعه الحق إلى أحياء تدق عن النظر »



العصى البكتيرية التي تحول السكر الى حامض اللبن ، ويوجد منها الملايين في اللبن الزبادي المعروف

وبكل سذاجة أخبر كل من لقي أن كشفه هذا كشف عجيب . كان فيه شيء من بساطة الطفولة فلم يحس بالحاجة في هذا إلى التواضع والتخاشع . ومن هذا الوقت ملأت تلك الخمائر الصغيرة دنياه . أكل وشرب ونام واحتلم وأحب . وأتى كل هذا ولم يستغرق في شيء منه . وأتى كل هذا وخمائره إلى جانبه لا تفارقه . إنها كانت روحه التي ينبض بها

وكان يشتغل وحده ، لا معين له إلا نفسه ، فلم يكن له حتى خادم واحد يغسل له قواريره . وكأني بك تتساءل فكيف إذن وجد من يومه الفراغ لاحتواء هذه الأحداث الكثيرة المتزاحمة ؟ والجواب أن هذا رجع بعضه إلى نشاطه الجمّ ، ورجعت بقيته إلى مدام «بستور» . قال « رو » Roux(1) : « إن مدام بستور أحبته حباً كادت به تفقه أبحاثه » . كانت الزوجة الطيبة تخلص من خدمة أطفالها ووضعهم في الفراش ، وعندئذ قد تسهر وحيدة تنتظر انتهاءه من عمله لتسوقه إلى النوم ، أو كانت تجلس بجانب زوجها في اعتدال على كرسي ليس بالمريح إلى نضد صغير تكتب ما يملي من مقالات علمية طويلة ، أوكانت تتركه يكب على قواريره ويفكر في أنابيبه وتظل في حجرتها تبيّض ما كتب من ملاحظات كنبش الدجاج في خط واضح جميل . كان « بستور » روحها ، وكان روح « بستور » عمله ، فأخذت هي تذوب في روح بستور – في عمله – حتى امّحت فيه

يتبع

احمد زكي

تصحيح — جاء في المقال السابق صفحة ٦٢٨ : « والدردي رواسب الخمر التي توجد في الدنان ، وهي مقيئة » والصواب « ... وهي مقيئة اذا اتحدت بأكسيد الأنتيمون » ا . ز

(1) فرن التفريخ

(1) هو Pierre Roux تلميذ بستور ومساعده في حياته ، وخلفه في معهده بعد مماته ، ولد عام ١٨٥٣ ومات حديثاً وسنترجم له ضمن بحاث المكروب

شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تمهيد :

الشعراء العالميون فى شعراء العربية قليلون ، وإنهم ليبلغون من القلة بحيث إنك لا تكاد تبلغ بهم عدد أصابع اليد الواحدة، وهذا بينما ترانا الآن نعرف من أسماء شعراء أوربا فى هذا العصر أكثر مما نعرف من شعرائنا الأقدمين ، وندرس من شعرهم وأدبهم أكثر مما ندرس من الشعر والأدب العربيين ، حتى أصبح الشعر والأدب الأوربيان فتنة شبابنا الناشئين ، يكلفون بهما أكثر مما يكلفون بشعرنا وأدبنا ، ويصرفون جل أوقاتهم فى دراستهما ، وتعرف طرائقهما حتى ظهر أثر هذا فى شعرهم ، وصرنا نرى بهذا فى الشعر العربى أساليب كثيرة ما كان يعرفها من قبل ، ومعانى جديدة تغزوه كما يغزونا أصحابها برجالهم وأسلحتهم ، وأموالهم ومصنوعاتهم

وربما يكون أبو العتاهية أول شاعر عربى بلغ هذه المنزلة الشعرية العالية ، وكان له شعر عالى تتسابق الأمم المختلفة اللغات إلى روايته ودرسه ، وترجمته إلى لغاتها وإذاعته فى بلادها . قال أبو الفرج : أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد الأسدى إجازة قال : حدثنى الرياشى قال : قدم رسول لملك الروم الى الرشيد ، فسأل عن أبى العتاهية وأنشده شيئاً من شعره ، وكان يحسن العربية ، فمضى إلى ملك الروم وذكره له ، فكتب ملك الروم إليه ، وورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبى العتاهية ، ويأخذ فيه رهائن من أراد ، وألح فى ذلك ، فكلم الرشيد أبا العتاهية فى ذلك ، فاستعفى منه وأباه ، واتصل بالرشيد أن ملك الروم أمر أن يكتب بيتان من شعر أبى العتاهية على أبواب مجالسه وباب مدينته وهما :

ما اختلف الليل والنهار ولا   دارت نجومُ السماء فى الفَلَك
إلا لنقل السلطان عن مَلِك   قد انقضى مُلكه إلى مَلِك

وهما فى الحق بيتان جديران بأن ينالا مثل هذه العناية من ملك الروم ، فما أحسنهما عظة بالغة ، وما أصدقهما حكمة نافعة ، وما أجمل أسلوبهما فى سهولته وامتناعه ، ولكن علماءنا جازاهم الله لا يقدرون من هذا ما قدره ملك الروم لأبى العتاهية ، وقد ينظرون إلى هذين البيتين إذا قرأوهما إلى صناعتهما اللفظية ، ولا يهمنهم منهما هذا المعنى الجليل الذى عنى به ملك الروم ، وربما يعيبونهما بما يسمونه التضمين الذى عابا به بيتى النابغة الذبيانى :

وهُمْ وردوا الجِفارَ على تَميم   وهم أصحاب يوم عُكاظَ إنِّى
شهدتُ لهم مَوَاطِنَ صادقات   شَهِدْنَ لهم بحسن الظن منى

والتضمين عندهم هو تعليق قافية بيت بما بعده بحيث لا يتم الكلام إلا به ، وهذا بأن يكون جواب شرط أو خبراً أو نحوهما لا نعتاً أو نحوه من التوابع والفضلات ، فلا يرضيهم إلا أن يكون لكل بيت من القصيدة وحدة مستقلة عن البيت الذى قبله ، والبيت الذى بعده ، ولا يكفيهم أن تكون القصيدة كلها وحدة يصح أن تتصل أبياتها بمثل هذا التضمين الذى يعدونه من عيوب القافية ، ويصح ألا تتصل به إذا اتصلت بأمر آخر غيره ، وربما يكون اتصال أبياتها بمثل هذا خيراً من تقاطعها وتباعدها ، والاكتفاء فى الربط بينها إذا عنى به بمثل قولهم (دع ذا أو عد عن ذا)

وقال أبو الفرج : أخبرنى عيسى بن الحسين الوراق ، وعمى الحسن بن محمد وحبيب نصر المهلبى ، قالوا : حدثنا عمر بن شبة ، قال : مرّ عابد براهب فى صومعة فقال له : عظنى ، فقال : أعظك وعليكم نزل القرآن ، ونبيكم محمد صلى الله عليه وسلم قريب العهد بكم ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله ؟ قلت : نعم ، قال : فاتعظ ببيت من شعر شاعركم أبى العتاهية حين يقول :

تجرد من الدنيا فانك إنما   وقعت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكلا هذا وذاك يثبت لنا من أبى العتاهية شاعراً عالمياً نباهى به من يباهينا بشعرائه العالميين فى القديم والحديث ، على قلة هذا الصنف من الشعراء عندنا ، وندرة الشعر العالى فى شعرنا ، ويهمنا الآن أن ندرس العوامل التى كان لها أثرها فى هذا الأمر إلى ظهور شاعرنا أبى العتاهية ، لنعرف كيف ظهر فى الشعر العربى بهذا المظهر ، ونعرف حال العصر الذى نشأ فيه ، وكيف كان أثره فى شعره

يجرى مؤرخو الآداب العربيــة على أن الصناعة البديعية لم تظهر فى الشعر العربى ، ولم يكلف بها شعراء العرب إلا فى العصر العباسى ، بعد ظهور أبى تمام وأضرابه من الشعراء الذين حذوا فى ذلك حذوه ، واستنوا فيه سنته ، ثم زادوا عليه فيــه حتى جعلوا من الشعر صناعة لفظية ، لاتنطوى على معنى جليل ، أو غرض نبيل ، وإنما هى ألفاظ جوفاء لاطائل تحتها ، ولا تهم الناس فى أمر دينهم أو دنياهم

أما أنا فأرى فى هذا ما يخالف رأيهم فيه كل المخالفة ، أرى أن الصناعة البديعية كانت موجودة فى الشعر قبل الاســلام ، وأرى أن الشعراء قبله كانوا يقصدون إليها فى شعرهم ، ويتكلفونها فيه كما تكلفها فيه أبو تمام ومن أتى بعده ، وإن أربوا فى ذلك عليهم ، وقصدوا اليه أكثر منهم ، وأرى أن أبا تمام لم يفعل إلا أن جدد هذه السنة ، ونهج فى شعره على منوالها ، بعد أن كاد الشعراء العباسيون قبله يسلكون بالشعر مسلكاً جديداً يخالف هذا المسلك ، ويتلاءم مع العصر الذى ظهروا فيـــه كل الملاءمة

وكان امرؤ القيس أول من عني بالصناعة البديعية فى الشعر العربى ، فتكلف منها مالم يتكلفه أحد قبله ، وتزاحمت فى شعره الكنايات والمجازات والتشبيهات والاستعارات وما إليها ، فكل هذا من الصناعة البديعية ، واسم البديع يشمل عند القدماء التشبيه مثلاً ، كما يشمل المقابلة والجناس ونحوهما

وقد ضاع أكثر شعر القدماء قبـل امرىء القيس ، فلا نعرف مقدار ما كان فيه من تلك الصناعة ؛ والذى نرجحه أنه كان لايخلو منها ، ولكن الذى كان يغلب عليه العنـاية بالمعانى الأصلية ، فكانت تظهر فيه على فطرتها فى غير تصنع ولا تكلف ولا اجتهاد فى تحسين ، يأتيها بتصرف الخيـال فيها بتشبيه أو كناية أو نحوهما

وغاية ما ذكره علماء الأدب فى ذلك أن القدماء قبل امرىء القيس كانوا يقولون فى المرأة الحسناء : « أسيلة الخد ، تامة القامة أو طويلتها ، جيداء أو طويلة العنق ، » فقال امرؤ القيس فى هذا : أسيلة مجرى الدمع ، بعيدة مهوى القرط ، وكانوا يقولون فى الفرس : يلحق الغزال ، ويسبق الظليم . فقال امرؤ القيس فيه : (بمُنْجَرِد قيْد الأوَابِد هَيْكَل) ، ولا يكادون يجاوزون هذا فى بيان الفرق بين حال الشعر العربى قبل امرىء القيس وحاله بعده

وقد شغف الشعراء بعد امرىء القيس بصناعة البديع فى شعرهم ، وكانت حياتهم البدوية تضيق بهم ، وتضيق بعقولهم وأفكارهم ، فوقفوا بالشعر العربى عند معان محدودة ، متأثرة فى ضيقها وعدم اتساعها ، وقلة أثر العقل المثقف فيها بضيق تلك الحياة ، وقلة أثر الثقافة فيها ، وأخذوا يدورون حول تلك المعانى كما تدور الرحى حول محورها ، لايتصرفون فيها إلا بتشبيه أو استعارة ، أو مجاز أو كناية ، أو نحو هذا من تلك الصناعة التى تنافسوا فيها ، حتى وصلوا بها فى سجع كهانهم الى آخر حدودها ، فكان لهم فيه سجع متكلف مرذول ، لايقل قبحاً فى تكلفه عن السجع الذى تكلف بعد الاسلام فى آخر العصر العباسى ، إلى أن ظهرت هذه النهضة الحاضرة

ثم جاء المتأخرون من شعراء هذا العصر ، فزادوا الطين بلة ، واتخذوا الشعر تجارة ، وتكسبوا به فى المدح والهجاء ، وداروا به فى تلك المعانى لايكادون يتجاوزونها ، أو يحسنون شيئاً سواها ، فساء أثر هذا الشعر فى الأمة العربيــة ، وصار شعراؤه معاول هدم فى بنائها ، وقد جمدوا على ما ألفوه من هذا جمودَ أممهم على أوثانها وأصنامها

وفى وسط هذا الجمود الأدبى ، وذلك الضيق الفكرى ، ظهر الاسلام يدعو العرب إلى دين يأخذ بهم من عزلتهم ، فى هذا الضيق وذلك الجمود ، إلى معترك الحيـاة الذى تتلاقى فيــه الشعوب ، وتجتمع متنافسة فى وسائل الرقى والنهوض ، فحاربه أولئك الشعراء وحاربهم ، لأنهم رأوا فيه خطراً على ما جمدوا عليه فى صناعتهم ، ورآهم هو من الجمود وضيق الفكر بحيث لايصلحون ولايتفق شعرهم مع دعوة هذا الدين الجديد ، ورأى أنه لايتفق معه إلا أدب مثقف يعني فيه بالمعانى الأصلية السامية ، أكثر مما يعني بتلك الصناعة التى تضيع فيها تلك المعانى ، ويتلاعب فيها بما يسمونه المعانى الثانوية التى لايصح أن تؤثر فى حال من الأحوال على المعانى الأصلية ، ولاشك أنه كلما أوغل الشعر والأدب فى إيثار تلك الصناعة بعـدا عن هذه الغاية

السامية التي يراد لها فيها أن يتفقا مع هذا الدين ، فيكونا للبشر كافة ، لا للعرب خاصة ، ولا تقف تلك الصناعة حائلاً دون فهم الناس لها ، أو العناية فيهما بما يعنيهم منهما

فاذا أردت أن تعرف نظر الاسلام إلى ما كان عليه الشعر والأدب العربي من هذا كله إبان ظهوره ، فانظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال له بعضهم يتشادق في كلامه تشادقهم : « يارسول الله ، أرأيت من لاشرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك بطل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم منكراً لهذا منه : أسجعٌ كسجع الجاهلية ؟ » وانظر إليه صلى الله عليه وسلم يفتخر بنشأته على بغض هذا الشعر فيقول : (لما نشأت بُغِّضتْ الى الأوثانُ وبغض إلى الشعر ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله . الحديث) . وانظر إلى قوله تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) ، وقوله أيضاً في سورة الشعراء : (والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

وقد انقضى عهد النبوة وعهد الخلافة في محاولة إصلاح الأدب العربي ، والوصول بالشعر الى تلك الغاية النبيلة . ثم جاء بعد هذين العهدين عهد بني مروان ، وهم من بني أمية الذين كانت تغلب عليهم النُّعَرَةُ العربية ، لما كان لهم قبل الاسلام من الزَّعامة في قريش ، وهذه النعرة هي التي وقفت بهم على رأس المناوئين للدعوة العامة التي أتى بها الاسلام ، حتى أنهم لم يسلموا إلا بعد فتح مكة والسيف مُصْلَت على رؤوسهم ، وهي التي تأثروا بها في سياستهم حينما آل أمر المسلمين إليهم ، فرجعوا بالشعر الى نُعَرته العربية ، وحولوه عن وجهته الانسانية التي أخذ يسير فيها على عهد النبي وخلفائه الراشدين

فوقف لهم بنو عمهم من بني هاشم ، قوم النبي وعشيرته الأقربين ، وهم الذين كانوا أول من بادر الى الايمان بدعوته ، وفهموا حقيقة ما يدعو إليه ، وعرفوا أن هذا الدين للبشر عامة ، لا للعرب خاصة ، وأنه لا يصح أن يكون فيه فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)

وعلى هذا قامت الدعوة العباسية الهاشمية ، فنشأت دولة إسلامية محضة ، وكانت للعرب كما كانت للفرس وللقبط وللبربر وللترك ولغيرهم من الشعوب التي دانت للاسلام ، وقليل من الناس من يفهم كما نفهم كيف قامت هذه الدعوة ، وأنها كانت ثورة دينية سياسية أدبية ، قام بها العباسيون ومن ناصرهم من الفرس وغيرهم ، وأن غايتها كانت إقامة دولة للمسلمين لا للعرب خاصة ، وانتهاج خطة جديدة تأخذ فيها بيد كل الشعوب التي دانت للاسلام ، لتشترك في بناء الوحدة الاسلامية ، وقد كان لهذا أثره العظيم في الدين والعلم والأدب والشعر ، إذ أخذ العلماء من كل الشعوب يشتركون في بناء هذه الوحدة ، وأخذ الأدباء والشعراء يقضون في الأدب والشعر على تلك النُّعَرَة العربية ، ويعملون على تسهيل الشعر للناس ، وتقريبه لتلك الشعوب الأعجمية التي رفعت رؤوسها في تلك الدولة ، وكان أكثر أولئك الشعراء من أصل غير عربي ، فانتهزوا فرصة قيام دولة العباسيين وإنصافها لهم ، وقاموا بثورتهم الأدبية في عنف وشدة ، حتى صاروا في الشعر أعلام هذه المدة من العصر العباسي ، وضعف شأن الشعراء الذين كانوا من أصل عربي ، إذ جمدوا في شعرهم على نعرتهم العربية ، وعنايتهم بتفخيم لفظ الشعر وتجويد صناعته أكثر من عنايتهم بتثقيفه وتهذيبه ، والتفنن في معانيه وأغراضه ، وقد عاد شأن هؤلاء الشعراء إلى الظهور حينما ظهر أبو تمام والبحتري وأضرابهما من الشعراء الذين تأثروا بأصلهم العربي ، وأخذوا يعودون بالشعر إلى سنته القديمة

ولعل هذا الاسم (عصر الثورة العباسية) هو الاسم الذي يجدر أن تسمى به تلك المدة من ذلك العصر ، فهو خير مما يسمونها به (صدر الدولة العباسية) وكثير منهم لا يراعي ما يمتاز الأدب به في هذه المدة عما بعدها من هذا العصر ، فيجعل العصر العباسي كله عصراً واحداً ، ويجري في هذا على ما كانوا يعتادونه من تقسيم عصور الأدب العربي إلى أقسام سياسية محضة ، تتبع قيام الدول العربية وسقوطها ، ولا تتأثر بغيرها في بدئها ونهايتها ، وقد كان أعلام الشعر في هذه المدة هؤلاء الشعراء الثلاثة ـ بشار ـ أبو نواس ـ أبو العتاهية ـ فلنوازن بينهم فيها ما ؟

عبد المتعال الصعيدي

تحية مولود

للأستاذ محمود غنيم

سرَّكَ اليومَ قولُهم أمْ ساءكْ   حينَ قالوا : هذا غلامٌ جاءكْ ؟
جانبُ اللهو من شبابكَ ولّى   فدَعِ اللهوَ ينتظرْ أبناءكْ
وتحمّلْ عبءَ الأبوّةِ يا ويـحكَ لم يحملِ امرؤٌ أعباءكْ
أيها الطارقُ الجديدُ سلاماً   أسألُ الصفحَ إن أسأتُ لقاءكْ
علِمَ اللهُ ما كرهتُكَ ضيفاً   لا ولكنني كرهت شقاءكْ
بتُّ أخشى عليكَ جورَ الليالي   فالليالي ما أنصفتْ آباءكْ
غيرَ أني أمسيتُ رغمَ شعوري   أتمنى على الزمان بقاءكْ
وأراني إذا أصابكَ سوءٌ   أبذلُ النفسَ والنفيسَ فداءكْ
ساءني يا بنيَّ أنْ كنتَ نجلاً   لي فكانت أبوّتي لك داءكْ
أيَّ ذنبٍ جنيتَ في المهد حتى   يُصبحَ الهمُّ في الحياة جزاءكْ
ليت شعري أقانعٌ أنت أم لوْ   تستطيعُ الكلامَ تُبدي استياءكْ
أفتدري كم بتُّ أرفو كسائي   وأوشّي بكل زاهٍ كساءكْ
وإذا ضنَّ ثديُ أمّكَ يوماً   بالحيا جعتُ والتمستُ غذاءكْ
ولقـد أسمعُ الرعودَ تدوّي   في ثباتٍ ولا أطيقُ بكاءكْ
كم حملتَ البكاءَ سيفاً صقيلاً   إنْ تلوّحْ به يُنلْكَ رجاءكْ
دمعةُ الطفل من دموع الغواني   صاحِ صُنْ من كليهما أحشاءكْ
أنت في مهدكَ الصغيرِ أميرٌ   فوقَ عرشٍ يرجو الجميعُ رضاءكْ
فتحكّمْ ترَ الذكورَ عبيداً   لك في البيت والإناثَ إماءكْ
هو عرشٌ أساسُه الحبُّ لا بطـ   شَكَ نخشى ولا نرومُ عطاءكْ
أتُراها جنـايةً أم تُراها   منّةً تستحقُّ منكَ ثناءكْ
ليتني عشتُ مثلما عشتَ غرّاً   تُغمضُ المقلتين عمّا وراءكْ
إنني يا بنيّ أسكنُ أرضاً   دائماً همُّها فصفْ لي سماءكْ
قد توارت طفولتي في ظلام الـ   غيبِ فانشرْ على دجاها ضياءكْ
لكأنّي نشأتُ خلقاً جديداً   يومَ ناديتَ فاستمعتُ نداءكْ
يا دقيقَ البنانِ واليدِ جلّت   يدُ مثّالٍ صوّرتْ أعضاءكْ
نمْ هنيئاً يرعاكَ من شقّ عينيْـ   كَ وأجرى بين العروق دماءكْ
علَّ من وكّلَ البِلى بردائي   يجعلُ الخزَّ يا بنيَّ رداءكْ !

(كوم حماده)   **محمود غنيم**

تمادوا بشكواهم

للأستاذ فخري أبو السعود

لقد زهّدتني في القريض معاشرٌ   إذا نظموا فالحزنَ والهمَّ والغمّا
كأنْ ليس غيرَ البؤسِ للشعر مُلهمٌ   ولولاه ما قالوا ولا عرفوا النظما
قوافيهمُ آهٌ فواهٌ فعَبْرةٌ   تلي زفرةً من مُهجةٍ من أسىً تَدمى
تمادَوْا بشكواهم فملَّتْ وأصبحوا ،   إذا ما شكَوْا أهمّاً لقارئهم ، همّا
أكلُّ أخي شعرٍ خدينُ بلابلٍ   يفوز سواه بالأماني وبالنعمى ؟
يخالون أنّ الشعر يزداد رقّةً   إذا وصفَ الأشجان والألمَ الجمّا
فهذا شكا في جنبه ألفَ طعنةٍ   وذاك طوى في كلّ جارحةٍ سهما
وذا صـدرُهُ نارٌ وعيناه ديمةٌ   وأضلاعُه حرّى وأحشاه كَلْمى
وذاك بطيءٌ ليلُه متطاولٌ   يُساهر فيه وحده الأفقَ والنجما
وذلك أضواه وأوهى اصطبارَهُ   غرامٌ تمشّى في جسمه يُنحِلُ الجسما
وذلك يبكي كالوليدة ساخطاً   بلا سببٍ يُدرى ولا غرضٍ يُسمى
وذيّاك يشكو دهره ويذمه   ويزعم أنّ الدهر أوسَعَهُ ظلما
يكلّف باعَ الدهر ما لا يطيقه   ويُنحي عليه – حين يمنعُهُ – لوما
يود لوَ انَّ الدهر يأتيه بالمنى   جميعاً ولم يدأب ولا عقَد العزما
وقد يَبْلغُ الساعي إذا جدَّ سعيُه   مُناهُ ولم يَلْحَ الزمانَ ولا ذمّا
يخالُ حياةَ الناسِ قارئُ شعرِهم   بلاءً فلا نُعْمى هناك ولا رُحْمى
وكم في رحيب الكون من نِعَمٍ ومن   محاسنَ تُصبي العينَ والروحَ والفهما
وكم عرَضتْ فينا الطبيعةُ حسنَها   بلا ثمنٍ غُنْماً لمنْ بادرَ الغنما
ترى في مجاليها وألوانِ حسنها   عزاءً لمن يأسى ورِيّاً لمن يظما
ووحياً لشعرٍ ينبذ الشكوَ والبُكا   ويستلهمُ الأنوارَ والروضَ واليمّا

فخري أبو السعود

القصص

من أساطير الإغريق

إيخو ونركيسوس (١)

الفاتنـــة التي أصابها البكم ، والجميل الذي عشق صورته

للأستاذ دريني خشبة

كان زيوس — كبير آلهة اليونان — يتعشّق فتاةً حلوة الدل ، بارعة الحسن ، رقيقــة الشمائل ، تُدعى يو . وكان ، برغم زوجاته الخمس أو الست ، يختلف إلى حبيبته في الخلسة بعــد الخلسة ، يؤانسها ويسامرها ، وتؤانســه وتسامره ، ويبل فمه الظامئ من ثغرها الراوي ، بقبلة ... أورشفة . . .

وكانت أولى زوجاته (حيرا) هي التي تزعجه بما تبث حوله من الرقباء ، وتنشر من الجواسيس ، يحمــلون اليها كل حركة من حركاته . وكان هو يضيق بكل ذلك ، ولــكنه لا يستطيع إلا أن يداهن ويداهن ... ويبالغ في المداهنة ، لشدة شغفه بحيرا ، ولأنه كان يحس في الخضوع لها لذةً أولبية لا تعدلها لذة . . . إلا لذة تدليله لحبيبته يو

وكما كانت حيرا تمــكر مكرها في كل حينٍ ، كذلك قد مكر الالــه مكره . . . !

أراد أن يشغلها عنه بملهاةٍ تذهب من وقتها كل يوم بساعاتٍ يقضيها في أحلامه الغرامية بين يدىْ يو ، ملتذاً قوامها الخصب ، مستمتعاً بجمالها الفيْنان ، سابحاً في هذه الملاحة المترعة بالمفاتن ، في كل جارحة من جسمها الممشوق

وقد سنحت له الحيلة . . .

حدّثها عن فتاة ناضرة الشباب ، ريّانة الأهاب ، عذبة اللسان ، وقّادة الجنان ، تعرف من قصص الحيــاة وأنباء الدنيا مالم يتيسر بعضه للآلهة أنفسهم ! وكانت حيرا ، كــكل الأنثيات ، مولعةً بالثرثرة ، مشغوفةً بالمعرفة ، تبغض الصمت وتغرم بالــكلام الطويل الموشّى . وهي مع ذاك طُلَـعة ، بقدر ما هي أذن ، تتــكلم كثيراً ، وتُثرثر كثيراً ، وتسمع كثيراً

وانطلقت إلى الفتاة فشُغفت بها لأول لقاء ، ووجــدتها ، كما حدّث زوجها فيّاضة القول غزيرة القصص ، تتدفّق في حديثها تدفّق الخمر في الكــأس ، حتى إذا استقرت في مكانها من الجسم ، شاعت حُمّياها فيه ، فأطربت ، وأرقصت ، كأنها عُصرت من حديث هذه الفتاة !

ثم جعلت تتردّد عليها ؛ وما تــكاد الفتاة تفرغ من إحدى قصصها العجيبة حتى تأخذ في أعجب منها وأغرب ، وهي بين الآونة والأخرى ما تني تنمق حــديثها بالنّكات البارعة ، والملح الرائعة ، مرسلةً المثلَ في مقامه ، والحــكمة في موضعها ، في غير كلفةٍ ولا عناء . ثم هي كانت رقيقة دقيقة ، لا تُمل السامع ولا ترهق الناظر . وكانت تُقبــل على سُمّارها وكأنها تختص كلاً منهم بقلبها ، وكأنما تلقى إلى كل منهم بقرارة نفسها ، حتى ليحسبها كلٌّ له وحده ، بما يحسبه تؤثره به من عطفٍ ، وتغمره من ود ، وتزجى إليه من محبة . . .

وكانت خيلة صائبة من زيوس ، شــغل بها حيرا طويلاً ، ليفرغ هو إلى يو ... فيا للآلهة ! !

ولــكنها شعرت من زوجها لفحةَ الصد ، وأحست فيه انقباضاً وجفوة ، فوقر في نفسها أن لابد من أمر ، وأن هناك سراً أي سر ؛ فآلت لتكشفنّ ما تغفلها فيه

وبثت عيونها ، وأرسلت أرصادها ، حتى استوثقت مما كان بينه وبين يو ، وحتى أدركت أنه قصد إلى إلهائها بهذه القصّاصة الخبيثة ليفرغ هو إلى لُباناته وأوطاره !

(١) آثرنا عدم ترجمة ايخو — أو إكو — بما يرادفها في العربية وهي لفظة (صدى) لأن التسمية يونانية وقد نقلها الرومان عنهم ثم ذاعت في كل اللغات . وكذلك أثبتنا لفظة نركيسوس (نرجس) ليونانيتها أيضاً

ولا ندرى ما ذنب الفتاة التى ملأت أذنى حيرا سـحراً ، ونفثت فيهما موسيقى وألحاناً ؟ لقد ظلمتها زوجة الآلـه الأكبر ، التى تحمل بالباطل لقب حاميـة النساء وحافظة الأجنة ، حين أقسمت لتسلبنها الطلاقة والذلاقة ، ثم لتُسلطن على لسانها العىّ والحَصر يُشْقيانها ويُعذبانها !

لقد كان كل ما اتهمت الفتاة به أنها كانت سبباً فى تمادى زوجها فى غىّ حبه ، وإبعاده فى ضلالة هواه ؛ فنفثت فى عُقدِ سحرها ، ثم قصدت إلى الفتاة المسكينة فبهرتها ، وأرسلت عليها شُواظاً من غضبها ، وقذفتها برُقْيةٍ من رُقاها المهلكة ، لم تستطع بعدها أن تُلجلج لسانها بكلمة واحدة تفرج بها عما فى نفسها ...

وقهقهت حيرا حين حاولت الفتاة أن تتكلم فلم تستطع ؛ ثم شاءت الخبيثة أن تظهر آية أخرى من آيات غـدرها ، فقالت ، بعد أن نفثت نفثة ثانيــة : « أنا أسميك إيخو ؛ وأمُنُّ عليك فأطلق لسانك باللفظة المفردة ترسلينها فى ذَيل كل كلام تسمعين ... اللفظة الأخيرة فحسب يا إيخو ... »

فرددت الفتاة المسكينة : « إيخو ! ! »

***

أما يو ، فقد نفذت اليها حيرا وصبت عليها من جام سحرها ما تحولت به إلى بقرة صفراء فاقع لونها ... تسوء الناظرين . ولهذا حديث طويل مشجٍ ندعه الآن ، لنرى ما كان من أمر إيخو . .

دهشت الفتاة لبيانها أين ذهب ، ولصوتها الجميل أين وَلّى ، وللرخامة الفضية التى كانت تترقرق من فمها الشتيت كيف ضاعت ، ولهذا السحر الذى كيف قضى على أولئك جميعاً ؟ !

لقـد بكت كثيراً ، وتوسلت إلى الآلهة ، ولـكن ... أين الآلهة ؟ لقد تصامُّوا جميعاً ، لأن حيرا هى القاضيـة ، ولأنهم يشفقون أن تُفسد عليهم أسباب السماء كما أفسدت الأرض على عرائس البحر !

وأطلقت ساقيها للريح ، فيممت شطر غابة ذات ماء وذات أفياء ، ثم إنها تخذت لها مأوى فى أصل سنديانة ضخمة الجذع ، معروشـة الفروع ، وارفة الأفنان ، وأقامت ثمة تجتر أحزانها وتُسمّر أشجانها ، وتقابل بين ماضيها السعيد وحاضرها الشقى ، وتسكب فيما بين هذا وذاك دموعاً ساخنات وعبرات غاليات !

وبينا هى سادرة فى كهفها ، مستغرقة فيما آل اليـه أمرها ، إذا بصَحبٍ يافع من الشباب اليانع يمرون ببابها ، من دون أن يروها ، وهم يتحدثون أحاديث الصبى ، ويتسامرون سمر الفتوة ، ناعمين بأشهى مناعم الحياة

وظلت ترقبهم ، وتستذكر أيامها الخوالى ، إذ الشمل مجتمع ، والرواد محدقون ، مرهفةً آذانهم ، شاخصة أبصارهم ، فاهتزت هزة المحموم بالشجن ، المروَّع بالشجى !

وأطلت من كناسها ، فرأت الغلام الاغريقىّ المشهور ، «نركيسوس» الذى دَلَّـه الآلهة بجماله ، وتامعذارى أثينا بنضارته وإشراقه . رأته يتخلَّف عن أصحابه ، مأخوذاً بجمال نرجسة حلوة اقتطفها من غصنها الميَّاس وفَتَنها المياد . ثم وقف يحدّق فيها بعينيه المعسولتين ، اللتين لوّنتهما شمس الجنوب بهذه الصبغة السحّارة ، وكمنت مِلأهما يعاسيب الفتنة ، تنتشر منهما فى دنيا القلوب !

والسبيل فى الغاب ملتوية متداخلة ... تيه يضل فيه العابر ، ويباب أخضر لا يهتدى فيـه السائر ؛ هنا منعرج لا يصل منه الانسان الى أمن ، وهناك منحنى لا ينتهى الى سلام . ولقد مضى الدليـل مع الصحاب ، ولبث نركيسوس وحده ، يضرب أخماساً لأسداس

ولم تستطع إيخو حين أبصرت به أن تفلت من هذا الشرك المنتشر حوله ، تعلق بخيوطه السحرية القلوب والألباب . . . فأحبته بكل قلبها ، وأرسلت فى نظراتها اليه نفسها تتمرغ تحت قدميه ، وتهمهم بين قدميه ، كأنها خُلقت له . . . لا لها !

ولـكن كيف السبيل الى التعبير عن هـذا الهوى الملح والحب المخامر ، ولسانها فى عُقال إلا من المقطع الأخير ، ينطلق فى إثر الحديث ، أو اللفظة المفردة تردفها بصـياح كل صائح ، وهُتاف كل هاتف ؟ !

وراحت تقتفى أثره ، من غير أن تشعر هى ، ودون أن يشعر هو ! وتَقُصُّ خُطاه وهى لا تعى ما تفعـل ، وهو لا يدرى كذلك ؛ فكان دبيبها كدبيب القطا ، أو كوثب الضفادع . على أن حركة غير مقصودة أتت بها إيخو جملته يعتقد أن أحداً من سكان الغابة يتبعه ، فصاح قائلاً :

« من ؟ . . . »

فرددت المسكينة نداءه : « من ؟ . . . »

فقال : « هل من أحد هنا . . . ؟ »

وأرسل هذا السؤال فى رعب خفيف ، فرددت إيخو اللفظة الأخيرة : « هنا . . . »

فبهت نركيسوس ، وقال ، وقد خال المتكلم امرأة :

« هلمى يافتاة . . . هلمى . . . »

فرددت إيخو اللفظة الأخيرة . . « هلمى . . »

فزادت حيرته ، وتضاعف خباله . . وقال :

« لم لاتأتين إلى ، وليس هنا أحد يرى ؟ ولا انسان يشهد ؟ »

فثار كامن الهوى فى نفس إيخو ، وملأت اللفظة الأخيرة : « يشهد ؟ » بكل ما تركت لها حيرا فى قرارة لسانها من رنين فضى ، وجرْسٍ جميل . . . »

وعاد نركيسوس يقول : « يافتاة ! ليت شعرى ما يحجزك ؟ أين أنت إن كنت هكذا تستحيين ؟ تعالىْ »

وكأن إيخو أدركت أن الفرصة سانحة للقاء هـذا الحبيب الطارئ ، فبرزت من مكمنها فى غير هيبة ولا وجل ، وقصدت اليه ، تعرض حبها ولظى جواها عليه ؛ ولما لم يكن فى مكنتها أن تخاطبه ، لتكشف له عما تضمر من هيام به ، ومحبة له ، بدا لها أن تثب إلى حيث هو فتعانقه ، وتضم صدره إلى صدرها ، ليبث أحدهما إلى الآخر

ولم تـكد تفعل حتى جهد نركيسوس فى تخليص نفسـه منها ، ثم انطلق فى الغابة لا يلوى على شئ ، كالرئم المروّع والظليم المفزَّع . . ! !

وذلك أنه لم يجرب هذه المفاجأة بالحب ، ولا وقع مرة فى شراك غرام ، وقد ربكته إيخو حين غمرته بكل حبها ، فشَرِق به وغُصّ ، وقال : الفرار الفرار !

وتسلط الهم على قلبها فشفّـه ، والشجن على جسمها الناحل فأضناه ، وكانت صدمة هائلة صدّعت جوانب نفسها ، وزادتها نكالاً على نكال ، ثم تتابعت الأيام وهى ما تزداد إلا سقاماً ...

واضمحلت ... ثم اضمحلت ... حتى غدت .. لا شئ !!

ولاشئ هذه ليست مبالغة فيما حل بها ، إذ الصحيح أنها غدت لا شئ ، إلا هذا الصدى يتردد فى كل واد ، ويذهب إثر كل نداء

وهى إلى اليوم تأوى إلى الغيران ، وتتخلّف إلى الشطئان ، وتنحدر مع الريح على جنبات الجبال ، تنعى همها ، وتندب حظها فى النادبين !

* * *

وشاءت المقـادير أن تنتقم لإيخو المعذبة من هذا الشاب الجميل نركيسوس ، الذى حطم قلبها الغض ، وقضى على نفسها المحزونة . فبينما كان فى طراد عظيم ، فى يوم قائظ ، عرج على خميلة ناضرة ملتفة الأغصان ، ليشرب من الغدير الصافى الذى يترقرق من تحتها . . وما كاد ينحني إلى الماء حتى رأى صورته فى صفحته السـاكنة ، فبهره حسنها ، وأخـذ يرمقها بقلب مشوق ونفس هائمة ، وهو لا يعلم أن الحبيب الذى تامه إن هو إلا ظله ، وعروس الماء التى تبلت فؤاده إن هى إلا خياله !!

عينان كبيرتان ذواتا أهداب زانهما وَطَف ، وجبين واسع وضاء مشرق ، وخدان أسيلان كخدود ربات الأولمب ، وخَمْلٌ حلو نابت فوق بشرة الوجـه يزيده رونقاً وجمـالاً ، وثغر حبيب كأُقحوانة أوشكت تتفتح ، ترف حوله بسمة ساحرة من حين الى حين ، وذَقَنٌ رقيق مسـتدق يرتفع على عنق يونانى رائع ، ثم فتنة تغمر ذلك جميعاً ! !

خاطبه نركيسوس ، ولـكن ... واأسـفاه ! إنه لا يرد إلا تمتمةً ، ولا يجيب الا كما تهمهم الريح !

ومد يده ... فمد الخيال يده ، واستطير صاحبنا من الفرح ، ظانًّا أن حبيبه توّاق إلى ما يريد !

واقترب بفمه ، يريد قبلة ، فاقترب الخيال بفمه كذلك . ولـكن ... ياخيبة الأمل ! ما كاد العاشق الولهان يمس الماء بشفتيه حتى ذهب حلمه أباديد ، وتكسرت مُنى نفسـه الحيرانة ، وفر الخيال فى شظايا الماء ... وتحطمت الصورة الرائعـــة بدَداً ! ! وخُيل لنركيسوس أنها تقول وهى تهتز ، قبل أن تلتئم : « لا ... لا ... لا ... لا ... »

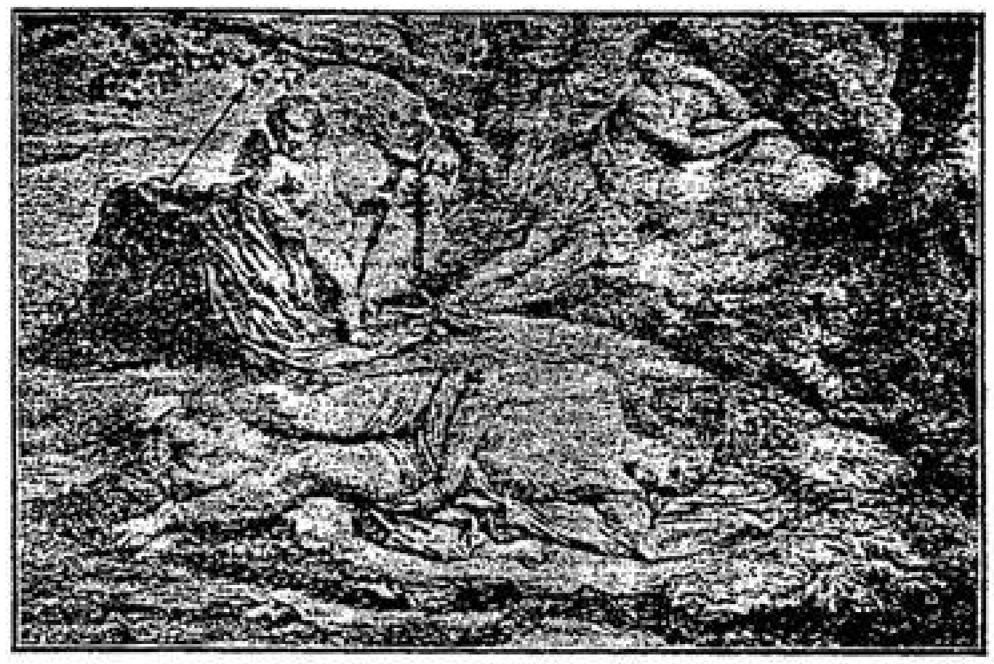
ولبث عبثاً يحاول قبلة ، وتتكرر الآية كما مست الماء شفتاه .. فانطلق مغيظاً مُحنقاً ، وهـام فى القفار على وجهه ، لا يطيب لجفنه المسهَّد كرى ، ولا يحلو لفمه المر عيش ، لجفاء الحبيب ، ونفرة آسيه العجيب ! ؟

نركيسوس ! الذى بلبل قلوب العـذارى ، وسفك دموع الحسان ، وضرّج كبرياء الغيد بالدم ، وأذل البسمات التى طالما حملتها إليـه أجنحة الحب من ثغور الفاتنات ... نركيسوس ، الذى ألقى بحب إيخو فى التراب ، تستبيه صورته ، ويتصباه خياله ، ويأسره ظله ؛ ... فيالنقمة كيوبيد ، ويا لعدالة ڤينوس ! !

لقد طفق يختلف إلى الغدير لدى كل شروق شمس ، يناجي

حبيبه المعبود وأمله المنشود ، فلاينثني إلا إذا توارت بالحجاب !

وما انفك يشكو ويتوجع ويستعطف ، وما انفك الخيال يتصام ويتباكم . وإذا تحدث تمتم ! !



نركيسوس يتحول إلى زهرة — تصوير بوسين

ثم ...

أجل فلا بد من ثم هذه ...

ثم ذوى عوده ، وذبلت نضرته ، وتهدم جسمه ، وتحطم قلبه ، وتأرجحت روحه فى حدقتيه ، ... و ... دنت ساعته !

ووقفت إيخو فى فنن وارفٍ ، فى أيكة قريبة من الغدير ، تشهد الفصل الأخير ، من مأساة حياتيهما ...

وسمعته يقول مخاطباً ظله : « أيها الحبيب ! أجل ! لقد حق لك أن تنتصر على كبريائى ، وتسحق مرتى وتهد أعضائى ... هأنذا أموت أيها الحبيب ... بقربك ... ياعروس الماء النافر ... أموت ... وأحبك ... فالوداع ... الودا ... ع »

وبكت إيخو . . . . ورددت هذا الصدى الحبيب : الودا ... ع ! »

وأقبلت عرائس الماء تنوح بدورها على نركيسوس ، ثم ذهبت فى أرجاء الغابة تجمع الحطب لاحراق الجثة ، كما جرت بذلك العادة فى ذاك الزمن . . . ولكن ؟ يا للعجب ! لقد عادت فما وجدت غير زهرة جميلة من أزهار النرجس ! انحنت على صفحة الغدير تنظر فيه إلى ظلها . . . وتذرف دمعها . . . قطرة ، فقطرة . . .

دريني خشبة

في ربوع أمريكا الجنوبية

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

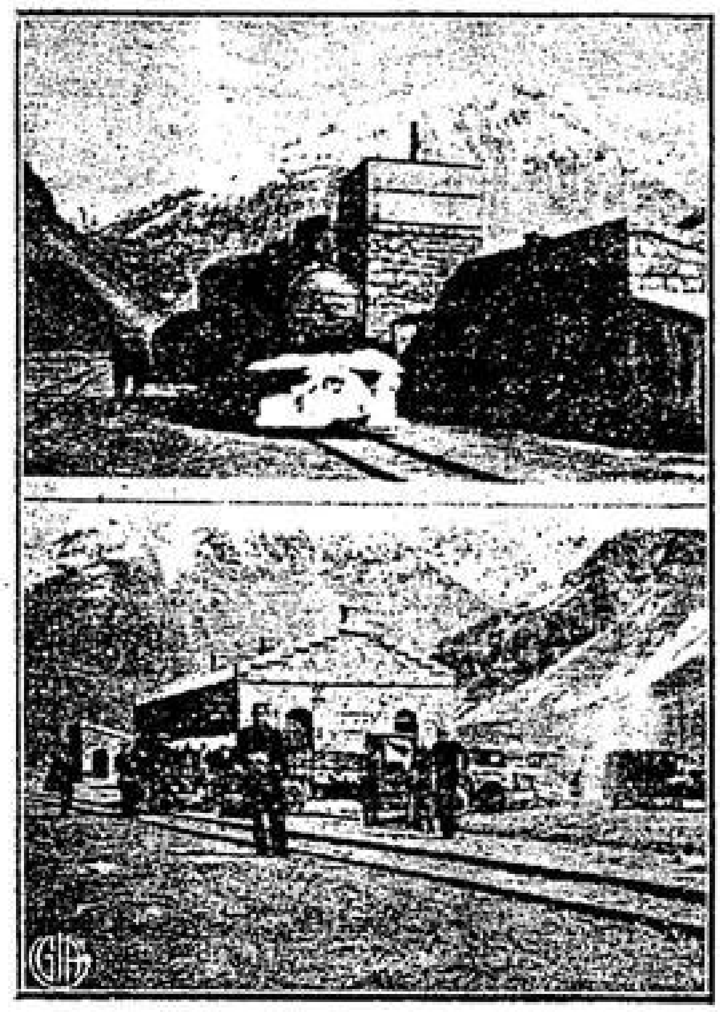
عبر الأنديز الرائعة :

لقد كان من أحلامي التي خلتها منذ أمد بعيد خيالاً بعيد المنال ، أن أعبر جبال الأنديز وأمتع النظر بمشهد (أكونكاجوا) ثانية ذرى العالم علواً ، وكانت تعاودني تلك الأمنية سنة بعد أخرى ، حتى شاءت المقادير فحققت لي ذاك الأمل في الصيف الماضي ، وكم كثرت الأراجيف وأنا على ظهر الباخرة إلى « الأرجنتين » بأن الطريق معطل ولن يمكن عبوره اليوم ، وما كدت أصل بونس إيرس حتى قصدت على الفور داراً للسياحة مستعلماً ، فقيل لي إن الطريق معطل على أثر السيول والثلوج التي اجتاحت منه اثني عشر ميلاً بقطرها ومحاطها وقناطرها ، ولن يمكن عبوره في ذاك الجزء إلا على متون البغال الممضة وسط الثلوج الرهيبة مدى أسبوع ، فأخذتني الدهشة ، وكاد يتطرق اليأس إلىّ ، لكني عدت فاعتزمت القيام بتلك التجربة حتى لا أحرم رؤية مجاهل الأنديز الرهيبة ، وبعد لأي ما قبلت شركة السياحة أن تبيعني التذكرة ، وقد اشترطت ألا تتحمل أية مسئولية إذا حدث لي حادث في الطريق ، وكم سرح الخيال في تلك المجاهل بقية يوم السبت وطيلة الأحد ، فكان تارة يبدو الأمر قاتماً مخيفاً ، وطوراً يضيء الأمل فتبدو الرحلة ناجحة شائقة . قصدت دار الشركة صباح الاثنين لأتسلم التذكرة ، وما كاد يراني الرجل حتى صاح باسماً أن قد فتح الطريق لأول مرة ، وأني سأعبر المنطقة المنهارة على السيارات المريحة بدل البغال الخطرة ، وذاك أول يوم يستأنف فيه السفر المأمون بعد أكثر من نصف عام ، ومن العجيب أني لم أقابل ذاك النبأ بما يستحقه من الفرح والبهجة إذ كانت النفس تطمح إلى ركوب البغال وسط الثلوج فتكون مخاطرة جديرة بالتجربة . ابتعت التذكرة إلى سانتياجو ودفعت زهاء ستة عشر جنيهاً مصرياً ثمناً لها

قمنا في الساعة السابعة صباحاً بالسيارة نبرح مندوزا صوب جبال الأنديز وما كدنا نغادر جوانب البلدة حتى أوغلنا في سهول شبه صحراوية ، يكسوها الحصى وتتخللها أعشاب وشجيرات قصيرة شائكة يابسة ، وكانت تقوم جبال الأنديز أمامنا في صفحة قاتمة منفرة عريت من النبت ، ولبثنا نسير صعداً على ليات أحد وديانها الغائرة الجافة حتى فاجأنا شبه سهل في وسط الجبال ، به بعض الزرع والشجر الأخضر فبدا كأنه الواحة وسط الصحراء وتلك محطة (أسپايـاتا Uspallata) وهنا بدت الجبال المائية تكسوها الثلوج المشرقة يسيل ماؤها في واد ضيق ، جوانبه مشرفة عاتية مجدبة ، ويجري في أسفله ماء شحيح — وهو نهر مندوزا — وهذا ممر أسپاياتا الذي سلكه الانسان منذ حل أمريكا في العصور البائدة مخترقاً به تلك الجبال ، ولما جاء الأسبان اتخذوه طريقهم على متون البغال ثلاثة قرون ، حتى أقيمت سكة الحديد ، وقد شاهدنا قنطرة صغيرة محدبة من عمل الهنود الحمر قديماً ولا يزال يسميه القوم (Camina de Los Anes أي طريق الأنديز) بعد ذلك أخذت السيارة تصعد في منعطفات وعرة دونها هوى سحيقة وأمامها نجاد شاهقة تجللها الثلوج الناصعة في مشهد يأخذ بالألباب ، وكثيراً ما كنا نلمح على بعد جواناكو يسرع بالهروب بمجرد إحساسه بنا وهو كاللاما من فصيلة الجمل ، وبعد مسيرة ست ساعات بسياراتنا وصلنا محطة : لاس قاكاس : وكنا نشاهد فلول القضبان والقناطر مهشمة أيما تهشيم

وقفنا ننتظر القطار والريح عاصفة والبرد قارس زمهرير ، وكنا نرى على بعد قمة Tupungato بهامتها المدببة البيضاء وهي من أعلى ذرى الأنديز إذ يبلغ علوها ٢٢١٣٦ قدماً

أقبل القطار وكان مقدمه مغطى بالثلوج كأنه يحمل وسقاً من الجليد الناصع ، وحللت مكاني من الدرجة الأولى وهي تقارب الدرجة الثانية عندنا ، وليس بالقطار سوى درجتين ، وكان قد أمضني الجوع إذ كانت الساعة الثانية بعد الظهر فلجأت فوراً إلى عربة الطعام وتناولت الغداء الشهي الجيد ، وكان ثمنه زهيداً لا يجاوز ثمانية قروش ، وذلك من أثر الرخص الذي كنا نسمع عنه في بلاد شيلي . وفي منتصف الطعام فاجأنا منظر غريب : مجموعة من أسنان الصخر بعضها فوق بعض تتوجها صخرة كبيرة حاكت الدير على بعد ، والأسنان شابهت الرهبان الصاعدين إليه ،

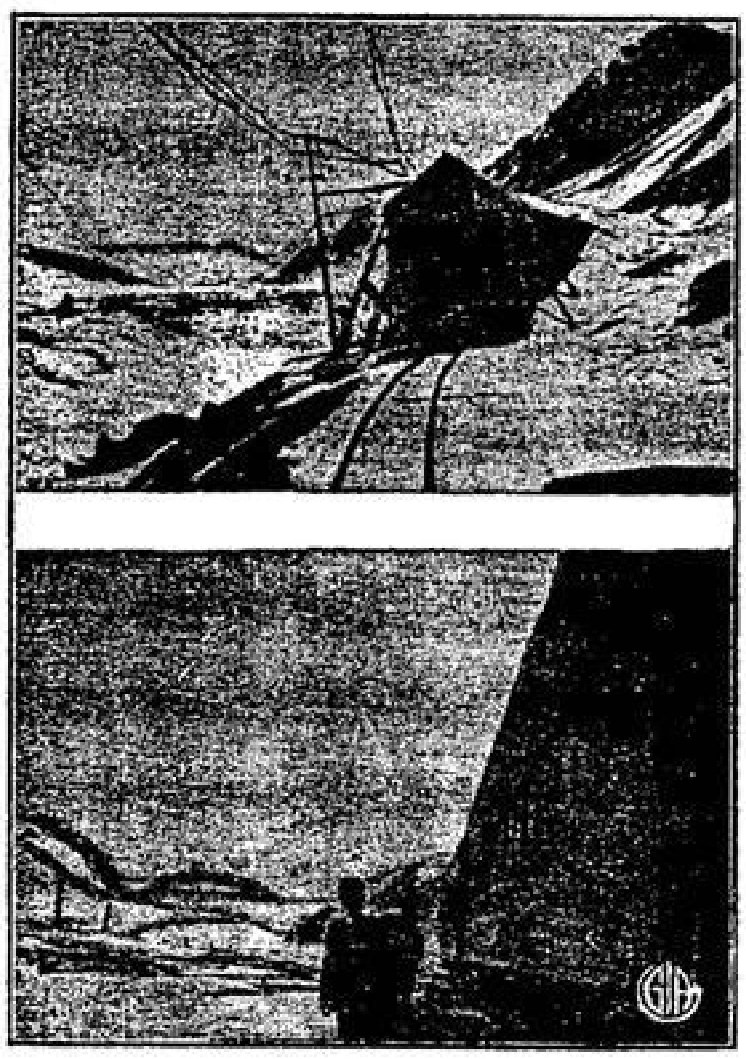


قطار الأنديز وسط الثلوج

ومن ثم أطلق عليها القوم اسم Penitentes ثم وقف بنا القطار فى محطة (بونتادل أنكاس) ومعناها جسر الأنكا، فنزلنا سراعاً نحو الجسر العجيب، فاذا به صخرة متصلة بالجوانب، تحتها وادفسيح يجرى به ماء، بعضه مستمد من عيون حارة عظيمة النفع فى الاستشفاء، والجسر طبيعى عظيم الاتساع، يمكن ثلاث عربات متجاورة من المرور، فعرضه تسعون قدماً وعلوه ٦٥ وسمكه ٧٠ وقد عرف منذ القرن الخامس عشر وأحيط بالخرافات وأنه مقر الأبالسة فى عرف الهنود الحمر، وأطلق عليه اسم أحد قواد الأنكا توباك توباكوى (Tupac Tupaqui) وقد وقفنا بعد قيام القطار نترقب قمة (أكونكا جوا) أعلى ذرى الدنيا الجديدة (٢٣٣٠٠ قدم) وأول ما تسنم الانسان هامتها فى ١٤ يناير سنة ١٨٩٧ ظهرت تشمخ باسقة فى السماء ومن حولها جمهرة من الذرى الأخرى يجللها جميعاً بياض الثلج الناصع، وبين فترة وأخرى كان يحلق فوق رءوسنا طائر الرخ الهائل ملك المرتفعات وأقدر الحيوان على احتمال عصف الريح وقر البرد، وكان الثلج يسود الأرجاء كلها، اللهم إلا فى بعض الشجيرات القصيرة ونبات الصبار (الكاكتاس) فى شكله العجيب وكأنه اسطوانات تقوم متجاورة، ويكسوها زغب من شوك طويل، وكنا كلما تقدمنا زادت كثافة الثلج حتى أن القطار كان يجرى بين جدران خانق من الجليد الناصع كاد يغطى العربات إلى نصف ارتفاعها.

وفى محطة: (لاس خوبقاس) دخل القطار ظلة أقيمت من الحديد المجزع تفادياً من ثقل الثلج، وهنا تعددت الربى، فكانت كأنها الهامات الشم جللها الشيب الناصع، ومن ألسنة جليدها كان يسيل لعابها فى زرقة مستملحة يزينها زبد أبيض، وكم تكاثر الثلج على أسلاك غلاظ وصفائح قاسية فقوضها، وأنت ترى بقع الثلج الأبيض كندوف القطن تملأ التجاويف الواحدة تحت الأخرى، والماء يسيل من هذه فتهوى فى جنادل وشلالات الى الأخرى فيذيبها، وقد يجمد بعض الماء الهاوى فيظهر فى زوائد وأسنان بلورية، وفى الهُوى الغائرة يتجمع الماء ويجرى فى واد ضيق، وفى كثير من البقاع كان يقام للقطار نفق من حديد مخافة تكاثر الثلج، وفى هذا الجزء كان القطار يسير على ثلاثة قضبان، الأوسط منها مسنن لكى تشتبك به تروسه خشية وعورة المنحدر.

دخل بنا القطار نفقاً طوله ميلان تقريباً، ومن غريب المصادفات أن ارتفاعه عن سطح البحر ميلان أيضاً، وهو أعلى جهات سكة الحديد، فهى هنا ١٠٥١٢ قدماً فوق سطح البحر وفى وسط النفق الحد الفاصل بين الأرجنتين وشيلى، وبمجرد عبور القطار بنا هذا الحد داخل النفق، سمعنا صليل أجراس تدق من تلقاء نفسها عندما يضغط القطار على أسلاك كها وذلك إيذاناً بتخطى الحدود. ولما أن خرج القطار من النفق الى ضوء الشمس أشار القوم أنها هو (الكريستو) الى يميننا، وهو تمثال هائل للمسيح أقيم فى سنة ١٩٠٤ حينما احتكم الخصمان فى مشكلة الحدود الى ملك انجلترا ادوارد السابع، والذى توسط فى حسم النزاع وعرضه للتحكيم نساء الفريقين وقساوستهم



نجتاز نفق الحدود بين أرجنتينا وشيلى

على أن تنفق نقود الحرب فى تحسين الطرق على الأنديز ، وبجزء من ذلك المال أقيمت سكة الحديد . ثم اكتتبوا لهذا التمثال ، وقضى ملك الانجليز بجعل الحد عند تقسيم المياه بين الدولتين ، وهى هنا على علو ١٢٨٠٠ قدم ، والتمثال من البرنز القاتم صيغ من بعض المدافع الحربية القديمة التى أخذوها من الأسبان فى حرب الاستقلال رمزاً للسلم وتحطيم أدوات الحرب ، ويقوم على قاعدة من جرانيت وعلوه ٢٦ قدماً ، وقد نقش على قاعدة التمثال ، وتحت أقدام المسيح ما معناه :

«لقد أقسم رجال الأمتين بين يدى المسيح ألا ينقض عهد السلام بينهما ، حتى ولو دكت تلك الجبال فصارت هباء» . على أن التمثال كادت تكسوه الثلوج فتخفيه . أخذنا فى الانخفاض من منحدر وعر ، ما كان القطار ليستطيعه لولا القضبان المسننة ، ومن دوننا وادى أكونكاجوا الغائر ، وبين محطتى كاراكولس و بورتيليو ، فاجأتنا مجاميع الربى فى تعقيد رهيب تتوسطها بحيرة الانكا على علو ٩٠٠٠ قدم ، ويقولون بأن ماءها ثابت المقدار لا يزيد ولا ينقص طيلة العام ، وذاك ما زاد قدسيتها عند الهنود ! ولن يستطيع قلم مهما أوتى من البيان والافصاح أن يعرب عما يحسه المسافر من رهبة وجلال تتمثل فى عظمتهما القدرة الآلهية التى تزرى بكل شىء ، وما الوصف بمجد شيئاً ، فلن يأخذ القارئ من قولى إلا قبساً ضئيلاً ، وعليه إذا أراد الوقوف على شىء منها أن يمتع نظره بمرآها كى يحس بما أحسست . ويقولون إن أجمل ما ترى مناظر الصخور وأروعها فى العالم بين تينك المحطتين . أخذنا نمر بالمحاط الشيلية ، وكلما هبطنا ندر الثلج وزادت القرى وتعددت المسايل المائية ، وقد بدا هذا الجانب من الجبال أغنى بعناصر الحياة بين إنسان وحيوان ونبت وشجر من الجانب الشرقى ، لأن رياح الباسفيك تدر عليه من بللها ماء وفيراً على نقيض الجانب الآخر الشرقى .

ومن الأنهار التى استرعت نظرنا (الريو بلانكو) أو النهر الأبيض ، وسمى كذلك لكثرة ما يعترض ماءه من صخور يرغى فوقها فيبدو أبيض ناصعاً . ثم وقفنا طويلاً فى محطة (Los Andes) وعندها غيرنا القطار الضيق الى آخر . ثم خيم المساء فحرمنا بقية الاستمتاع بجمال الطبيعة بين هذه وسانتياجو ، ولقد غيرنا القطار مرة أخرى فى محطة (لاى لاى) وهنا يُرى أول قبس من مياه المحيط الهادى الى عين المسافر

وفى منتصف الثانية عشرة مساء دخلنا سانتياجو بعد مسيرة زهاء سبع عشرة ساعة من مندوزا أو سبع وثلاثين ساعة من بونس إيرس ، وكان مقدراً لعبور القارة كلها من بونس إيرس الى سانتياجو ثلاثون ساعة بالقطار مسافة قدرها ٨٨٨ ميلاً أو تزيد

محمد ثابت

البريد الأدبي

كتاب عن سنت هيلانه

صدر أخيراً كتاب بالفرنسية فى مجلدين عنوانه « سنت هيلانه » بقلم مسيو أوكتاف أوبرى . والكتاب مثل بديع للتاريخ القصصى أو القصص التاريخى ؛ ومن الواضح أن مسيو أوبرى لم يرد أن يقدم لقارئه « سنت هيلانه » ، تلك الجزيرة المنسية النائية ، وإنما أراد أن يقدم تفاصيل المأساة التاريخية العظيمة التى كانت سنت هيلانة مسرحاً لها ، ونعنى اعتقال الأمبراطور نابليون بها مدى ستة أعوام ، ثم وفاته وثواءه الأخير بها . ولقد كانت مأساة سنت هيلانه فى حياة نابليون أعظم من أى حرب ومن أى موقعة ؛ فقد جعلت من الامبراطور العظيم مسيحاً آخر ، وشهيداً ؛ وما هى سنت هيلانه ؟ هى جزيرة صغيرة طولها ستة عشر كيلو متراً ، وعرضها اثنا عشر كيلو متراً ، وترتفع عن سطح البحر بمئات الأمتار ، وتبعد فى أعماق المحيط نحو خمسمائة كيلو متر عن الشاطئ الأفريقى ، فهذه البقعة النائية القفراء هى التى اختارتها انكلترا لاعتقال أعظم جندى وقائد فى العصر الحديث

ويستعرض مسيو أوبرى فى كتابه تاريخ الأمبراطور منذ هزيمته وأفول نجمه فى سنة ١٨١٥ ، ثم اعتقاله واقامته فى المنفى حتى وفاته سنة ١٨٢١ ؛ ولم يصدر من قبل كتاب أوفى وأدق عن هذه الفترة من حياة نابليون . وقد كتب من قبل عنها كتاب عدة ، بالاعتماد على الوثائق والمذكرات المختلفة التى تركت من زملاء نابليون فى المنفى ؛ ولكن مسيو أوبرى لم يكتف بالوثائق المكتوبة ، بل سافر الى سنت هيلانه ، وأقام مدى أسابيع فى « لونجوود » وهو المنزل الذى سكنه الأمبراطور منذ معتقله حتى وفاته ؛ واستعرض هناك الوثائق الانكليزية ورسائل السير هدسون لو سجان الأمبراطور ، ورسائل زملائه فى المنفى وأطبائه ، وهى وثائق تملأ نحو تسعين مجلداً كبيراً ؛ ولم يترك صغيرة ولا كبيرة فى حياة الأمبراطور وحياة زملائه فى المنفى إلا استوعبها .

وتستطيع أن تتأمل فى كتاب مسيو أوبرى ، لا صورة الأمبراطور وحدها ، ولكن صور أولئك الرفاق المخلصين من الرجال والنساء الذين ربطوا حياتهم بحياة سيدهم ؛ فهناك أسرة مونتولون ، وأسرة برتران ، والجنرال كورجو ، والسكرتير لاس كاز ، والوصيف مرشان ، والطبيبان أوميارا ومنيول ؛ هذا عدا حاشية الأمبراطور من الحراس الذين رتبتهم الحكومة الانكليزية ؛ ومما يشوق القارئ حياة المرأتين اللتين تبعتا الأمبراطور مع زوجيهما وهما مدام مونتولون ومدام برتران ؛ فقد كانتا على خصام دائم ، ولهما قصص ومنافسات ودسائس مشجية

وهنالك نقطة تاريخية هامة يصححها مسيو أوبرى ، وهى تتعلق بموقف السير هدسون لو ، حاكم سنت هيلانه وسجان الأمبراطور ؛ فقد ملأت التاريخ والسير التى كتبت عن مأساة سنت هيلانة بذم السير لو واتهامه بالقسوة والجمود والنذالة ؛ ولكن مسيو أوبرى يصحح كثيراً من أخطاء هذا الرأى ، ويقدم الينا السير لو فى الصورة الآتية : « كان السجين وكبير حراسه فى سن واحدة . وكان الأخير رجلاً صغير القد ، نحيفاً أحمر الشعر ، فى وجهه بقع ، يخفى وجله تحت ثوب من الخشونة الحربية ؛ ومع أنه لم يكن يتمتع بصفات باهرة ، فانه لم يكن مجرداً عن الخلال ؛ ولقد كان مخلصاً لوطنه ، وكان إدارياً حازماً ، مستقيماً ، متقشفاً ؛ ولم تكن تنقصه الطيبة الطبيعية ؛ بيد أنه كان يصدر عن تحكم ، وكان مدعياً ، متكبراً ؛ ولم يكن ذا رقة ولا ظرف » ، والحقيقة أن السير لو كان موظفاً أميناً يقظاً ، يسهر على أسيره بعناية ، ويخشى إفلاته من سجنه ؛ فكان يراقبه ليل نهار ، ويضيق عليه سبيل الحرية والحركة ؛ ومن هنا نشأت فكرة اتهامه بالقسوة والنذالة

وقد كان لصدور كتاب مسيو أوبرى صدى عميق فى دوائر التاريخ والأدب . وأجمع النقدة الثقات على أنه خير كتاب صدر فى موضوعه

ذكرى سيرفانتيس مؤلف دون كيشوتي

ظهرت منذ أعوام حركة فى أسبانيا وفرنسا للعمل على تخليد ذكرى الكاتب والشاعر الاسبانى الأشهر سيرڤانتيس ساڤدرا مؤلف القصة الخالدة « دون كيشوتى دى لامانكا » ؛ واتخذت هذه الحركة مظهراً عملياً بتأليف لجنة فى فرنسا تحت رياسة مسيو دومرج الفخرية ، وقد كان يومئذ رئيساً للجمهورية ، ورياسة مسيو بول بورجيه الفعلية ؛ وكان ذلك منذ سبعة أعوام ، ومازالت اللجنة قائمة ، ولها برنامج ضخم يقتضى تنفيذه الملايين . وقد تجدد الحديث عن مهمة هذه اللجنة وعملها أخيراً بمناسبة ظهور طبعة أثرية جديدة بالفرنسية « لدون كيشوتى » . وهذه الطبعة الجديدة من أجمل وأفخم ماظهر اليوم من طبعات القصة الخالدة ، وهى فى مجلد واحد ضخم ، وقام على اصدارها الكاتب الفرنسى جان كاسو ، وهى من أقدم التراجم الفرنسية المعروفة ؛ منها قسم من ترجمة جيزار أودان ، وهو كاتب وجاسوس فرنسى أوفده هنرى الرابع إلى مدريد فى مهمة سرية ، فقضى هنالك تسعة أعوام ، وعاد وفى حقيبته مخطوط الترجمة ؛ والقسم الثانى من ترجمة دى روسيه ؛ وقد صدرت لعامين فقط من صدور النص الأصلى فى اسبانيا (سنة ١٦٠٥) ؛ وقد عنى مسيو كاسو بتصحيح النصوص القديمة وتنقيحها وشرحها عناية كبيرة

أما حديث اللجنة التخليدية الفرنسية ، فهو أنها وضعت برنامجاً ضخماً لأحياء ذكرى الكاتب الكبير بالتعاون مع اللجنة الاسبانية ، وذلك فى مدينة توبوزو من مقاطعة لامانكا التى ينسب اليها الفارس المتجول « دون كيشوتى » ؛ ومن المقرر أن يقام لسيرڤانتيس تمثال فخم من صنع ماشادو عميد المثالين الاسبانيين ؛ ويقترح البعض أن يقام فى توبوزو تمثال هائل يمثل دون كيشوتى ، يتبعه وصيفه سانكو ، وهو يجر حماره ؛ ويرى أصحاب هذا الاقتراح أن يكون جواد الفارس من الضخامة بحيث ينشأ فى بطنه متحف لسيرڤانتيس ، يصعد اليه من سلم فى ساقه ؛ وأن ينشأ فى رأسه مقصف صغير ، وأن يكون فى جوف الحمار مطعم ! وهو مشروع كالحلم يذكرنا بأعاجيب العالم القديم ؛ والمهم أنه يقتضى الملايين أو عشرات الملايين ، وليس فى يد اللجنة منها شئ .

اللغة العربية فى تركيا

جاء فى صحف الآستانة ما نصه :

« اجتمع مجلس بلدية ماردين فى ٨ الجارى برياسة عزيز أوراس وتذاكر فى الاقتراح الذى قدمه بعض الأعضاء احتجاجاً على تعميم اللغة العربية فى ماردين وضرورة منعها ، وبعد المذاكرة تقرر مجازاة كل من يتكلم اللغة العربية بخمسين قرشاً تركياً ، وفى المرة الثانية بمائة قرش ، وفى حال التكرار يحكم عليه بالسجن !!!

اللغة العربية فى أمريكا

جامعة برنستن فى الولايات المتحدة من أشهر الجامعات فى العالم على الاطلاق ، وقد أعلنت أخيراً أنها قررت تدريس اللغة العربية والعلوم الاسلامية فى فصل الصيف تحت إشراف الدكتور العلامة فيليب حتى اللبنانى المعروف . ولأول مرة تفتح هذه الدروس العربية فى تلك الجامعة للرجال والنساء على السواء !!

الكتب

الانجليز فى بلادهم

تأليف الدكتور حافظ عفيفى باشا

للأستاذ م . ف . ا

لسنا نحاول فى هذه الكلمة أن نقدم كتاب الدكتور حافظ عفيفى باشا الى الجمهور ، فقد تقدم به مؤلفه إليه مباشرة ، وله من اسمه ومعرفة الجمهور به ما يغنيه عن ذلك التقديم ، كما أننا لسنا نحاول فى هذه الكلمة أن نجامل الدكتور ، فان احترامنا للمؤلف إنما يبعثنا على ألا نحاول مجاملته بغير الحق

إن ذلك الكتاب الذى أخرجه الدكتور من تلك الكتب التى لا يملك القارئ أن يصفها وصفاً موضوعياً ، فان كل فصل منه ، بل كل فقرة منه ، تدعو الى التفكير وتتداعى لها المعانى فى ذهن القارئ تداعياً يجعله فى شبه معترك أحياناً ، وفى شبه حماسة أحياناً أخرى ، بحسب اختلافه مع المؤلف أو اتفاقه معه فى الرأى ؛ فالذى يقرأ ذلك الكتاب يحس ما يحسه المتحدث الى جليس فى اجتماع خاص : لا يخيل إليه أنه يتعلم ، ولا يخيل إليه أنه يعرف شيئاً جديداً ، بل يشعر كأنه يجاذب جليسه أطراف حديث فى سمر ، وهو فى أثناء ذلك تارة يناقش ، وتارة يوافق ، وتارة يخالف ، ولكنه على كل حال مستغرق فى الحديث مستمتع به

لا يحاول الدكتور أن يظهر بمظهر المعلم الذى ينقل إلى الناس شيئاً جديداً ، بل يلقى ما يريد قوله فى نغمة هادئة تنسى الانسان أنه يعالج موضوعاً لم يسبق لأحد أن عالجه بمثل استيعابه وطريقته . مع أن الكتاب جديد فى موضوعه ، جديد فى طريقته ، جديد فى لونه

يتكون الكتاب من مقدمة ومن ستة أبواب ، كل منها يعالج ناحية من نواحى الحياة الانجليزية ، فالأول : يتناول الدستور البريطانى ، والثانى : يتناول الرأى العام الانجليزى وتكوينه ، والثالث : المسائل المالية ، والرابع : التعليم فى بريطانيا ، والخامس : نظام القضاء ، والسادس : الأمبراطورية الانجليزية . فأنت ترى من هذا أن الكتاب بحث شامل يكاد لا يفقد فيه القارئ ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية والسياسية فى بلاد الانجليز . على أننا مع ذلك قد شعرنا بأن مقدار ما يخرج به القارئ من العلم بالحياة العادية فى بلاد الانجليز لا يشفى الغلة ، فان تصوير الكتاب لطبقات الشعب ، ونفسية كل طبقة ، وعلاقة الطبقات بعضها ببعض ، يترك محلاً كبيراً يشبه التشوق إلى المزيد

والكتاب جدير بأن نعقد له غير فصل واحد فى صفحات الأدب والاجتماع . ولكن حسبنا اليوم أن نقول كلمة واحدة عامة عنه ، لنبين معنى واحداً من المعانى التى رأينا فيها مأخذاً على الكتاب ، ولكى نقدره تقديراً مجملاً بغير تفصيل

لعل من أكبر أسباب الزلل فى الحكم على قوم أن يكون الذى يقف نفسه للحكم عليهم متأثراً بميل سابق قبل أن يتصدى للحكم . وقد ظهر ذلك المأخذ واضحاً لنا فى معالجة الدكتور للحكم على طبقات الشعب الأنجليزى وتحديد ماهيتها . فكما أن الحكم قد يكون منتقداً لتحامل صاحبه على من تصدى للحكم عليهم ، كذلك قد يكون منتقداً إذا كان صاحبه مملوء القلب باجلال من تصدى للحكم عليهم . بل لقد يكون زلل الحكم أعظم وأكثر تضليلاً إذا كان الذى يحكم متأثراً بالميل والمودة . ويكون ذلك الزلل أشد أثراً إذا صحبته تلك النغمة الهادئة التى تلقى فى روع القارئ أن الكاتب غير متحيز فى الحكم . فالحق أن الدكتور معجب بالشعب الانجليزى إعجاباً جعله فى حكمه لا يكاد يرى بعد غاية ذلك الشعب غاية ، ولا دون قصاراه قصارى

فنظام انجلترا فى نظره يحوى فى نواحيه نزعة ديمقراطية جمهورية بارزة متغلغلة فى جميع أسسها ونواحيها ، بل إن المؤلف يقول إنه لا يبالغ إذا قال : « إن هذه النزعة أظهر فى أنظمة الحكم فى بريطانيا منها فى أنظمة الحكم فى فرنسا التى لما أعلنت الجمهورية استبقت لأسباب تاريخية . . . . . . جميع أسس

الأنظمة التي خلفها الملوك المستبدون »

ويقول : « ومهما يكن من بلوغ الديمقراطية البريطانية أعلى غاية ممكنة في هذا الزمان فان بريطانيا لا تزال محتفظة بجميع مظاهر الارستقراطية الملكية »

ولن يستطيع أشد الأنجليز تعصباً لقومه ، ولا أعظمهم إكباراً لكبريائه القومية ، أن يقول أكثر من هذا

وهو يقول بعد ذلك في وصف طبقات الشعب مبتدئاً بوصف الأشراف : « فالواقع أن هؤلاء الأشراف في انجلترة مهما سمت مراكزهم وبلغت ثروتهم هم كغيرهم يعملون ويكدون ، لا يأنفون الاشتغال بأي عمل أو مزاولة أية مهنة »

فهو قد نظر إلى تلك الطبقة من خير جهاتها ، وتطلع عليها بعين الرضى والاعجاب ، لا بعين الناقد المتحكم

ويقول في عرض حديثه عن الحمل الثقيل الذي تشكو منه حكومات الأنجليز المتعاقبة ، وهو ما تبذله في ميزانيتها للعمال العاطلين : « ولئن كان هذا العبء الناشئ من تنفيذ هذه القوانين الاجتماعية في انجلترة لا يزال ثقيلاً ، إذ يتراوح بين الخمسين والثمانين مليوناً من الجنيهات سنوياً ، فان انجلترة في الوقت نفسه قد اشترت راحتها وطمأنينتها السياسية بهذا المبلغ الذي يتضاءل بجانب النتائج العظيمة التي جنتها من تنفيذ هذه القوانين »

وكأننا به قد تجاهل ما كان لأثر هذه التضحيات المالية العظيمة في فداحة الضرائب ، وإرهاق كاهل الانتاج ، وعرقلة المصنوعات الانجليزية ، بطريق غير مباشر في ميدان المنافسة التجارية الدولية

وقد يطول بنا القول إذا نحن التمسنا الأمثلة الدالة على هذه النظرة العاطفة في الكتاب حتى لتكاد تحمل القارئ ينسى أنه يقرأ كتاب رجل من أمة أجنبية يصف ما في انجلترة بعين الناقد المستقل

ولئن كانت نظرة العطف هذه قد مالت بالمؤلف النابه إلى هذه الناحية الكريمة من التقدير ، فان نظرة الرجل السياسي الدبلوماسي قد أثرت من جهة أخرى في تقدير المؤلف ، حتى كاد في بعض الأوقات يصل من المقدمات إلى نتائج لا يبررها الاستنتاج . ولا يمكن أن يؤول هذا إلا بمجاملة الرجل الدبلوماسي الذي اعتاد أن يوحي إلى نفسه بما تصوره الظروف السياسية ، فاذا هو ناطق عن هذا الايحاء بغير أن يحس . يريد الرجل الدبلوماسي مثلاً أن يقول أحياناً إن عملاً من الأعمال يؤدي حتماً إلى نشوب حرب بين دولته وبين الدولة التي هو ممثل لدولته فيها ، فاذا به يقول إن ذلك العمل قد لا يكون مما يؤدي إلى زيادة حسن التفاهم بين الدولتين ، وعلى هذا القياس كان الدكتور الكبير يصل من بعض مقدماته إلى بعض نتائجه . ولأضرب لذلك مثلاً من الفصل الأخير الذي عقده على مصير الأمبراطورية الانجليزية ، فانه ابتدأ بحثه بسؤال

فقال : « أهى سائرة نحو التفكك والانحلال أم أنها ستستطيع المحافظة على وحدتها إلى أجل طويل ؟ » ثم ناقش السؤال مناقشة لا يشك القراء منها أنه واصل إلى نتيجة أن تلك الأمبراطورية محتوم عليها أن تنصدع ، أو على الأقل أن ينصدع عنها نصفها عند أول حرب جديدة ، ولكن القارئ يعجب إذا هو بلغ النتيجة فاذا بها : « من كل ما تقدم يمكن القول بأن لا محل للتشاؤم نحو مستقبل الأمبراطورية البريطانية » . ثم استثنى من ذلك ارلندة وحدها وقال عنها : « إنها سحابة تعكر هذا الجو »

ولاشك فى أن الرجل الدبلوماسى هو المسئول عن مثل تلك المجاملة . لقد يكون من المستحسن أحياناً أن نجامل ، ولكن المؤلف إذا تعرض لكلمة عامة كان واجباً عليه أن يسير مع المنطق ، ومع المنطق وحده ، والكلمة التى يقولها مثل الدكتور الكبير لها من الأهمية والوقع ما لا يكون لرجل دونه فى المكانة أو أقل منه علماً بما يقول

وفى الكتاب فوق كل ذلك نقد ثالث على وجه عام . فاننا إذا قرأنا عن الانجليز لا يمكن أن ننسى أننا نقرأ عن قوم بيننا وبينهم مسألة قومية ، وإذا كان ذلك المعنى فى ذهن القارئ فانه بغير شك يعجب أشد العجب إذا هو قرأ كتاب الدكتور الفاضل . إذ يخيل إليه أنه على خير تقدير إنما يقرأ كتاباً لرجل من بلاد غير مصر عن قوم هو معجب بهم إعجاباً خاصاً

على أن هذا المأخذ الذى أخذناه على نظرة المؤلف لا ينبغى أن يعد مفسداً للكتاب أو منقصاً من قدره نقصاً فادحاً ، فان البحث الذى ساقه المؤلف من دون هذه النظرة العاطفة المجاملة بحث جدير بكل إكبار . ففيه وصف للحياة الدستورية وأساليب الحكم فى بلاد الانجليز قلما يجد قارئ مثله فى كتاب واحد ؛ وفيه باب فى تكوين الرأى العام يمكن أن يعد بحثاً خاصاً لصاحب رأى مجتهد مستقل ؛ وفيه بحث فى المسائل المالية استعرض فيه المؤلف الموقف العملى ، ودس فيه من نظريات المالية والاقتصاد زبداً وافية مع القصد والجمع للأطراف ؛ وكان المؤلف موفقاً كل التوفيق فى بحثه الخاص بالتعليم فى بريطانيا ، فقد وصفه وصفاً دقيقاً يدل على نظره الفاحص وعقله الثاقب . فاذا نحن نقدنا لون التفكير ونغمته ، فلا يسعنا إلا شكر المؤلف الكبير على بحثه فيما دون ذلك ، وعلى هديته من المعلومات الثمينة التى زفها الى قراء العربية

م . ف . ا

تصويب

جاء فى مقال الأستاذ محمد محمود جلال المنشور فى هذا العدد صفحة ٦٥٦ عن رشيد ما نصه : « وهى مركز من مديرية الغربية » والصواب : « ... وهى مركز من مديرية البحيرة »

